


دمشق..

شعر: مدحة عكاش - رئيس التحرير

أي المفـــاتن في رحابـــك أعـــشق
بلـــد الفتـــون وســـحرها يـــا جلـــق
في كـــل زاويـــة وكـــل حنيـــة..
جفـــن يـــرف ومقلـــة تتـــألق
وعلـــى حـــصاك ويـــا تبـــارك مـــا أرى
نفحـــات فـــردوس تعـــج وتعبـــق
جمعـــت في مغنـــاك كـــل ســـجية
يزهـــو بهـــا هـــام الزمـــان ويـــشرق
هـــل كنـــت إلاّ للعروبـــة قلبهـــا
ولـــسانها، فـــإذا اســـتجارت ينطـــق
أعطيتهـــا يـــوم الـــشدائد موثقـــا
جـــل العطـــاء وجـــل ذاك الموثـــق







ورفعـــت في دنيـــا الكرامـــة رايـــة
ظلــت علـــى رغـم المـــصاعب تخفــق
يـــا مـــوئلاً للمكرمـــات ومعقـــلا
ألـــوى الزمـــان بـــه وعـــز المـــشفق
تـــأبين حكـــم الظـــالمين كريمـــة
كـــم ذل فيـــك الظـــالمون وأخفقـــوا
إن غـــاب مـــن مـــضر بـــساحك فيلـــق
يتبعـــه مـــن دنيـــا أميـــة فيلـــق
أو أنكـــر البـــاغي عليـــك مـــآثراً
وقـــف الزمـــان علـــى ربـــاك يـــصفق
تـــبقين يـــا ظئـــر العروبـــة كعبـــة
ينـــدى بـــساحتك الإبـــاء ويعـــرق
تـــشتاقك الـــدنيا جمـــالاً شـــيقا
ولانـــت في الـــدنيا الجمـــال الـــشيق
ويحـــار طـــرفي في ربـــاك ومـــا درى
أي المفـــاتن في رحابـــك يعـــشق




التعليم والمدارس في دمشق ١٨٥٠ - ١٩١٨

بقلم الدكتور:
إسكندر لوقا

لم تعرف سورية - قبل وبعد أن غدت ولاية سنة ١٨٦٤ - حياة تعليمية بالمعنى المعاصر لهذه العبارة. ومردّ ذلك إلى عدة اعتبارات، منها، اندثار المدارس التي كانت موجودة قبل الفتح العثماني وأثناءه، وفقدان المدارس الحديثة بسبب إهمال الدولة لهذا القطاع واكتفاء الأهلين بما لديهم من فرص العلم في الجوامع والزوايا(١) والخوانق(٢) والكتاتيب(٣)، حيث يتعلم الأولاد مبادئ القراءة والكتابة وطرفا من الحساب ويحفظون القرآن.

هذا، فيما يخص أبناء المسلمين على الأقل. وأما أبناء الطوائف المسيحية، فقد حظي هؤلاء بمعارف مماثلة ولكن في كنائس الولاية وما يتصل بها من أديرة.

بقيت الدولة، من حيث اهتمامها بشؤون الولاية الداخلية، بعيدة عن رفد هذا القطاع بما يكفل له الانتظام والتطور، وحتى قبيل خروج المصريين من البلاد، تجاوزته صراحة، في خط كلخانه الذي أعلنته بتاريخ ٣/ ١١/ ١٨٣٩، فيما أحاط الخط نفسه بقضايا أخرى عديدة، كمنح الرعية الأمانة على الروح والعرض، والوعد بإصلاح الإدارة والقضاء، وإجراء القرعة العسكرية، وإلغاء نظام الالتزام، ومكافحة الرشوة، واحترام القوانين وغير ذلك.

وهكذا، وبرغم صدور الخط، فإنه لم يقدم أية خدمة للحياة التعليمية في سورية، فبقي التعليم على حاله، متخلفاً، مزاجياً، لا تتعدى أغراضه الوقوف على شاطئ المعرفة(٤). وفي ذلك توكيد لسياسة الدولة فيما يتعلق بإقصاء رعاياها عموماً، والعرب منهم خصوصاً، عن أسباب النهضة الفكرية، التي قلبت وجه أوروبا حضارياً وثقافياً.

على أن ردة الفعل التي أحدثتها الحملة الفرنسية والوجود المصري في بلاد الشام، وما رافق ذلك كله من الاحتكاك بثقافة الغرب، كانت بلا ريب، من جملة الأسباب المباشرة التي

اضطرت الدولة، فيما بعد، إلى استصدار الخط الهمايوني الثاني في ١٨/ ٢/ ١٨٥٦، والذي عرف بخط التنظيمات الخيرية[٥].

ونص هذا الخط على وعد بإجراء إصلاحات تشمل قطاع المعارف كما تشمل قطاعات المالية، والمواصلات، والزراعة، والتجارة. وبقي هذا الوعد حبراً على ورق، أيضاً، حتى إعلان نظام إدارة المعارف في سنة ١٨٦٩. فكان صدوره، من حيث أثره في الحياة التعليمية، عاملاً مكن والي دمشق مدحت باشا فيما بعد من ممارسة سياسة تعليمية مغايرة لما كان يجري في السابق[٦]. فبينما كانت هذه الحياة تنساب بين الجوامع[٧] والكتاتيب، وفي البيوت حيث تقام حلقات الدروس المكرورة[٨]، ألقى هذا الرجل وبما عرف عنه من تبنيه لسياسة إصلاح مرافق الولاية، بكل ثقله في مجال التعليم بغية النهوض به وتطويره.

قضى نظام إدارة المعارف بتقسيم الدراسة الحكومية في أرجاء البلاد إلى خمس راحل هي:

١- المرحلة الابتدائية (في كل قرية أو قريتين). مدة الدراسة في هذه المرحلة أربع سنوات، يلقن خلالها الطلاب العلوم الدينية والقراءة والكتابة (بالتركية) والحساب والجغرافية والتاريخ.

٢- المرحلة الرشدية: (في كل بلد يزيد عدد بيوته على خمسمئة بيت). مدة الدراسة في هذه المرحلة أربع سنوات، يلقن خلالها الطلاب العلوم الدينية واللغة التركية ومبادئ اللغتين العربية والفارسية.

٣- المرحلة الإعدادية: (في مراكز الأقضية والألوية التي يزيد عدد بيوتها على ألف بيت). مدة الدراسة في هذه المرحلة ثلاث سنوات، يلقن خلالها خلالها الطلاب اللغة التركية والحساب والهندسة.

٤- المرحلة السلطانية: (تقتصر على مراكز الولايات) وهي قسمان:

- قسم عال: وفيه شعبتان الأولى منهما للآداب والأخرى للعلوم. مدة الدراسة فيه ست سنوات.
- قسم عادي: مدة الدراسة فيه ثلاث سنوات.

٥- المرحلة العالية: (في عاصمة الدولة فقط) وتشمل داراً للمعلمين وأخرى للمعلمات وثالثة للفنون، وثمة أيضاً مكاتب للفنون والصناعات المختلفة.

وأما المدارس الخاصة (أي الأهلية ومدارس الإرساليات التبشيرية) فقد عرّفها النظام المذكور بأنها "المكاتب التي تحدث في بعض المحلات وتؤسس من قبل جمعيات أو أفراد سواءً أكان هؤلاء من رعايا الدولة أو من الأجانب" وهي:

١- المدارسة الأهلية أو الوطنية: ويعود الفضل في تأسيسها، بادئ ذي بدء، إلى الجمعيات الإسلامية في ولاية سورية، وإلى أهل البر والإحسان في مدنها وقراها. وقد كان لجهود مدحت باشا، أثرها في زيادة عدد المدارس في سورية على قصر مدة ولايته لها[٩]، إذ تأسست في عهده (جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية) فأنشأت في وقت قصير عدداً من المدارس "لبث روح التعليم في أرجاء الولاية، منها ثماني مدارس للذكور والإناث في دمشق"[١٠].

٢- مدارس الإرساليات التبشيرية: بدأت أول إرساليات للآباء اللعازاريين عملها في دمشق سنة ١٧٥٥. وبعد حوالي عشرين سنة أسست فيها مدرسة لذكور. غير أنها توقفت بعد ذلك التاريخ بوقت قصير، فترة طويلة قاربت المئة سنة بسبب ما شهدته البلاد خلالها من أحداث سياسية أدت إلى قطع صلاتها بالغرب. وبقيت جهود الإرساليات التبشيرية مقيَّدة أو مجمدة بمعنى أدق، حتى أطلقها إبراهيم باشا في عهده. وبينما يرى بعض المؤرخين أن وظيفة المدرسة الأجنبية كانت ترمي إلى وضع النير

الأوروبي في أعناق المسلمين أولاً، وانحلال الرابطة الإسلامية ثانياً، والتبشير بالنصرانية ثالثاً، يرى عدد غير قليل من دارسي وظائف هذه المدارس نقيض ذلكن فيؤكد على الدور الهام الذي اضطلعت به مدارس الإرساليات التبشيرية في تنبيه الوعي القومي، وتعليم اللغات الأجنبية، وإدخال العلوم الحديثة في مناهج الدراسة، لجعل التعليم في البلاد أكثر ملاءمة لحاجات ذلك العصر.

وعندما نعود إلى دور الوالي مدحت باشا في مضمار التعليم، باعتباره امتداداً لمبدأ العناية بالشؤون التعليمية، مهما كانت أشكالها أو أغراضها، نجد أن مسعاه قد انتهى إلى ما انتهت إليه مساعي إبراهيم باشا من قبل. فهذا أطاحت به السياسة الدولية التي قضت بإخراجه من بلاد الشام كلها، وذاك أطاح به السلطان عبد الحميد، بعد أن أوغروا صدره بالقول "إن مدحت باشا إنما يرمي بإصلاحاته، ومنها إصلاح مرافق التعليم، إلى انتزاع ولاية سورية من جسم السلطنة والاستقلال بها لنفسه". وقضي، بذلك، على أجرأ محاولتين للرقي بقطاع التعليم في أرجاء الولاية.

بيد أن هاتين المحاولتين، وإن واجهتهما الدولة بمحاولات القضاء على نتائجهما الأولية، فقد كانتا من الأسباب الرئيسية التي حملت حكومة الآستانة على استصدار إرادتها السنية في أواخر سنة ١٨٨٢، حيث تم بموجب هذه الإرادة استبدال جمعية المقاصد بمجلس المعارف.

وقد كان لهذا الإجراء أثره، من بعد، في إحياء الحركة التعليمية وانتزاع تصريح رسمي من جانب الدولة لحفظ حقوق العرب في لغتهم القومية(١١).

وهكذا نجد أن صدور نظام (مجلس المعارف) في سنة ١٨٨٢، لم يكن هدفاً تعليمياً إصلاحياً بحد ذاته، بدليل أن اللغة العربية احتفظت بموقعها المتأخر بين المناهج التعليمية المطبقة في أرجاء الولاية. فمنهاج اللغة العربية، يشتمل على الصرف والنحو والقراءة والإملاء. وله في كل صفّ من صفوف المدارس الإعدادية، كما نتبين ذلك من الجدول التالي، ساعة أسبوعية واحدة أو ساعتان، وبحيث لا تزيد الساعات عن اثنتي عشرة ساعة في الأسبوع.

	العربية	التركية	الفرنسية	الفارسية
الصف الأول	٢	٦	٠	٠
الصف الثاني	٢	٥	٠	٢
الصف الثالث	٢	٣	٣	٢
الصف الرابع	٢	٢	٣	٢
الصف الخامس	٢	١	٤	١
الصف السادس	١	٢	٤	٠
الصف السابع	١	٣	٤	٠
	١٢	٢٢	١٨	٧

يلاحظ من الجدول السابق التركيز على تعليم اللغة التركية في الصفوف الثلاثة الأولى، والتركيز على اللغة الفرنسية في الصفوف الأربعة الأخيرة، مع إبقاء ساعات اللغة العربية رمزية في الصفين السادس والسابع. هذا بالإضافة إلى أن تدريس اللغة العربية وآدابها كان يتم "عن طريق تكليف أناس للقيام بهذه المهمة ليست معارفهم بها بأكثر من معارف العوام".

هذه الصورة التي جسدت واقع التعليم في دمشق، وفي ربوع الولاية بأسرها، خلال القرن الفائت، تؤكد لنا حقيقة يتلمس إبعادها أيّ دارس، وهي أن الدولة العثمانية لم تكن تبغي،

خلال سنوات الفتح كلها، وبخاصة في أعقاب يقظة الفكر في دول أوروبا المجاورة، أكثر من تثبيت الواقع المتخلف والمتردي في أقطار الشامية الخاضعة لها. ولقد انعكس أثر هذا الواقع، على أبناء المسلمين من أهل البلاد، أكثر مما انعكس على أبناء غيرهم، إذ لم يكن أمام المسلمين سوى الكتاتيب والمدارس الحكومية التي تعلم باللغة التركية، فيما أفاد المسيحيون من الامتيازات التي منحت الأجانب حق تأسيس المدارس الطائفية، فساعدهم ذلك على تعلم اللغات الأجنبية ومنها الإيطالية والفرنسية والإنكليزية والروسية واليونانية واللاتينية، الأمر الذي ارتاح لهم فرص الاحتكاك بالفكر الأوروبي، سواء ما تسرب منه إلى داخل البلاد عن طريق مناهج تلك المدارس، أو خلال التعليمي وتحكم المذاهب والتيارات المختلفة به.

بعد هذا الاستعراض السريع لحال التعليم في البلاد، بصفة عامة، والعودة إلى أسماء هذه المدارس، وانتماءاتها الطائفية، تعين إلى حد ملحوظ، على تصوّر أنماط الفكر التعليمي وتحكم المذاهب والتيارات المختلفة به.

وفي أوائل القرن العشرين لم يكن حال المدارس في دمشق، بأفضل مما كان عليه في القرن السابق. فقد ذكر في أحد المراجع أنه لم يكن في دمشق، خلال السنوات القليلة الأولى من هذا القرن سوى مدرسة ثانوية واحدة عنوانها الرسمي (المكتب الإعدادي) إلاّ أن الدمشقيين كانوا يسمونها (مكتب عنبر)، وقد كانت لغة التدريس في هذا المكتب اللغة التركية، بما في ذلك النحو والصرف. كذلك، فقد كان المدرس، شيخاً تركياً مسناً أرسلته الدولة لتعليم اللغة العربية. وعاش هذا المكتب منذ سنة ١٨٨٦ حتى أوائل الحرب العالمية الثانية.

ولنا أن نستنتج بعد هذا الاستعراض، أن حالة التعليم في دمشق، كانت مرتبطة بغاية محدودة، هي ما ترسمه السلطة للتحكم بالمستوى الثقافي لجماهير الناس، ومستقبل المدينة. وكان واضحاً، من طرق معالجة السلطة لواقع التعليم في دمشق، أن تدابيرها لم تكن جذرية، وكان أيضاً بعيدة عن المنهجية. نستدل على ذلك من التفاتها المفاجئ إلى الحياة التعليمية في زمن متأخر جداً من القرن التاسع عشر. والغاية من ذلك، كما نقدّر، مواجهة التبشير المسيحي. نفهم هذا من تفريغ مهمة التعليم من أغراضه التربوية المباشرة، لغة وقومية وحضارة في وقت معاً. ومن ثم، تكريس المناهج التعليمية لخدمة اللغة التركية بالدرجة الأولى، وإرضاء نزعات بعض الفئات الدينية في المدينة، بتعليم الدين الإسلامي وما يتفرع عنه من علوم، بالدرجة الثانية. وهذا ما جعل التعليم، على المستوى الحكومي الرسمي، قاصراً عن تمثل روح العصر، ومجاراة تطورات فكر الغرب، في تطلعاته الواسعة.

---

(١) الزاوية: هي المكان المعد للأفعال الصالحة وللعبادة، وقد كانت ركناً من أركان الجوامع في البدء ثم اتخذت شكل دور أو مساجد صغيرة.

(٢) خانقاه (ويقال خانكاه، وخونكاه) أي الموضع الذي يأكل فيه الملك (في القرن السادس للهجرة) وهي زوايا للصوفية، وأول من بناها السلطان صلاح الدين.

(٣) مفردها كتاب، هي أشهر مواطن الثقافة شيوعاً بين الناس في عهد العثمانيين. يقال لمؤدب الأطفال شيخ الكتّاب. وصفه في قاموس الصناعات الشامية، وهو من يلقن الأطفال حروف الهجاء وقراءة القرآن والكتابة والحساب. والعادة أن يأخذ شيخ الكتاب من الأولاد خميسية، في كل يوم خميس، من خمس وعشرين بارة إلى قرش عن كل ولد. وكان بعض شيوخ الكتاب يأخذون أجرهم مشاهرة من ستة قروش فصاعداً. وتجد في بعض الكتاتيب ما يقرب من مئتي صبي الأمر الذي ساعد بعض هؤلاء الشيوخ على الحياة برفاه.

(٤) قدم الشيخ عبد القادر بدران في كتابه منادمة الأطلال، صرة المدرسة في عهده على الوجه التالي: "ويفي أن يكون المدرس قد حفظ كلمات عن ظهر قلبه فإذا كانت ساعة الميعاد جلس متصدراً، وجلس العلماء والأمراء عن يمينه وشماله افتخاراً، ثم شرع كالهر يحكي انتفاخاً صولة الأسد، فيقرأ ذو صوت رخيم حزباً من القرآن، ثم يقرأ المعيد عبارة الكتاب، ثم يسرد المدرس ما كان يحفظه، ولا سائل مسؤول، فإذا وجد أحد غريب وسأل مسألة، انتهره الحاضرون وأسكتوه".

(٥) أعلن السلطان عبد المجيد هذا الخط أثر انتصار الدولة العثمانية وحلفائها (إنكلترا، فرنسا، إيطاليا) على روسيا في حرب القرم، وقبل أسبوع من مؤتمر باريس. وأقر السلطان بموجبه كافة المبادئ التي وردت في خط كلخانه لعام ١٨٣٩، وأضاف عليه تحقيق الامتيازات للطوائف غير الإسلامية، وحفظ حقوق الرعايا في الوظائف، كذلك إنشاء المحاكم المختلطة، والوعد بالسماح للأجانب بالتملك في أرجاء الدولة العثمانية، وغير ذلك مما يسوى علاقة الدولة، ولو ظاهرياً، وبدول أوروبا الحليفة.

(٦) نستثني من قولنا هذا الفترة من ١٨٣١ - ١٨٤٠. ففي خلال هذه الفترة قام إبراهيم باشا بوضع نظام للتعليم (١٨٣٤) مستوحى مما أنشأه محمد علي باشا بمصر، ومنذ ذلك الحين بدأ التعليم ينتشر بين الأهلين، ولا سيما، كما يقول شاكر مصطفى في كتابه (القصة في سورية) بين المسلمين، لأن طلاب المدارس الأميرية (الرسمية) كانوا كلهم منهم. وفي هذا الصدد يضيف د. محمد بديع شريف في كتاب (دراسات تاريخية في النهضة العربية الحديثة) قائلاً: "كان برنامج إبراهيم باشا يرمي إلى تأسيس المدارس الابتدائية في أنحاء البلاد جميعها، والمدارس الإعدادية في المدن الرئيسية بما في ذلك الكليات العسكرية. وقد بلغ عدد طلاب كلية دمشق في عهده ٦٠٠ طالب".

(٧) أكبرها الجامع الأموي في دمشق.

(٨) جاء في كتاب محمد كرد علي (كنوز الأجداد): "كان من عادة بعض أدعياء العلم من الشيوخ أن يرغّبوا الناس عن الدرس ليخلو لهم الجو ويستمتعوا وحدهم بالمناصب الدينية والأوقاف والمدارس والجوامع، لا ينازعهم أحد في شؤونهم، ما خلا أبناء بيوت محدودة ممن هم على شاكلتهم والاستئثار بمرافقها". وفي مقدمة كتاب (صفحات من تاريخ النهضة العربية) يقول ظافر القاسمي: "كان رجال الدين، إلا من عصم ربك، غارقين في الكتب التي ألّفوها، من متون الفقه وبعض كتب اللغة التي كانوا يسمونها (الآلة) فلا تفسير ولا حديث ولا برهان ولا إعمال للعقل ولا ترويض للفكر. أما العلوم الحديثة، كالجغرافية والتاريخ والهندسة والكيمياء، والفيزياء فدراستها حرام وتدريسها كفر. أما الاجتهاد والقائلون ببقائه أو استمراره، ففاسقون مارقون، أو كافرون ملحدون. ومن اتهم به ألفت له محاكم استثنائية وحوكم بالحبس".

(٩) بلغ عدد مدارس ولاية سورية في سنة ١٨٦٩، خمساً وأربعين مدرسة، تضم ٤٩٤ تلميذاً.

(١٠) في سامي الكيالي (الأدب العربي المعاصر في سورية): "إن مدحت باشا كان أول من أنشأ في سورية مدارس مدنية (أهلية). وفي أحمد أمين (زعماء الإصلاح في العصر الحديث) "إنه إضافة إلى تشجيع الجمعيات جمع الإعانات لفتح المدارس وإصلاح المساجد لجعلها مدارس، مستعيناً بأموال الأوقاف. وإنه وضع عقوبة لولي أمر الطفل إذا بلغ ابنه السادسة من العمر ولم يرسله إلى المدرسة".

(١١) نصت الفقرة الثالثة من التصريح المشار إليه، والذي صدر في أوائل شهر آب من سنة ١٩١٣ (أي بعد شهرين من انعقد المؤتمر العربي في باريس) على أن يكون التدريس باللغة العربية في جميع مدارس الولايات التي تتكلم أكثرية سكانها هذه اللغة، وذلك لتوفير أسباب الرقي والحضارة حالاً ومستقبلاً. على أن يبدأ بذلك منذ الآن في المدارس الابتدائية والثانوية، مع جعل تعليم اللغة التركية إجبارياً. وينظر من الآن في الوسائل التي تؤدي إلى جعل التعليم العالي باللغة العربية، على أنه يجب أن يظل التعليم باللغة التركية في المدارس الثانوية في مراكز الولاية لتعلم هذه اللغة.




هذي هي الشام

شعر: جابر خير بك

هــذي هــي الــشام ظـلٌّ وارفٌ ونـدى
وصـــادحٌ طـــاف في أجوائهـــا وشـــدا
هــذي هــي الــشام مـا مـرَّ النسيمُ علــى
رياضـــها الفـــيحِ إلاَّ طـــاب وابـــتردا
هــذي هــي الــشام مازالــتْ كمـا عُرفـت
لحنـــاً علـــى وتـــر التـــاريخ منفـــردا
وقِبلـــةً للـــهوى العـــذريّ طـــاهرةً
لم تعـــرفِ الكـــرَه والتـــسويفَ والفنـــدا
فالحـــبُّ في شـــرعِها ديـــنٌ ومعتقـــدٌ
إلاَّ لهـــا مـــا انتمـــى يومـــاً ولا وُلِـــدا

* * *

جئـــتم فرشَّـــتْ دروبَ القـــادمينَ لهـــا
وَرداً وأضـــفتْ عليهـــا العِطـــرَ والـــرأدا
جئـــتمْ إليهـــا، ففـــي أحنائهـــا رقـــصتْ
أسمـــى المـــشاعرِ ترحيبـــاً بمَـــنْ وَفـــدا
وهللـــتْ للوجـــوهِ الـــسمرِ باسمـــةً
وقبلـــتْ خـــدَّ مَـــنْ وافـــى ومَـــنْ قـــصدا
وقاســـيونُ رنـــا مـــن عرشـــه فرحـــاً
وراح يـــشدو زغاريـــد الهـــوى بـــردى







طـوبى لهـا فملـوكُ الفكـر قـد وَفـدوا
ليغمـروا ريفهـا والغـوطتين نـدى
عـرسٌ مـن النخبـة الأوفـى هنـا نَـصبتْ
خيامَهـا تـستطيبُ العـيشَ والرغـدا
فللكـرام وللـصيد الأبـاةِ بهـا..
وعـدٌ مـع الحـبِّ لمَّ الـشَّملَ واحتـشدا
مـدَّوا يـداً بالرضـى والخـير طافحـةً
فـالجودُ مـن جعبـة الأحـرار مـا نفـدا
وواعـدوها وأوفـوا الوعـدَ واجتمعـوا
علـى العطـاء. فكـانوا العـون والـسندا
وزيَّنـوا وجههـا الـضاحي، فمحْفَلُهـم
إلاَّ علـى الحـبِّ والإيثـار مـا انعقـدا
شـكَّوا علـى ملعـب التـاريخ ألويـةً
رغـم النوائـب كانـتْ رحمـةً وهـدى
أهـلاً بـزوّار أرضِ الـشام قاطبـةً
فزائـر الـشام في أجفانهـا رقـدا
وإن تـضيق علـى أحبابهـا فتحـتْ
للزائـرينَ الغيـارى، القلـب والكبِـدا
نـاموا هنـا فهنـا أهـلٌ وأفئـدةٌ
ترعـى وتفـرش أجفـانَ العيـون سـدى

* * *

يـا سـادتي وجـراح الـصدر نازفـةٌ
والعـين تَـدمى وتـشكو القهـرَ والرَمَـدا







إنْ عالجــت أمــتي نزْفــاً بخافقِهــا
ولملمَــتْ شملَهــا، أو جُرحُهــا بــرُدا
أو أنهــا فتحــتْ للــشمس نافــذةً
ووحــدتْ صــفها، أو روعُهــا هَمَــدا
هبَّــتْ عليهــا مــن المجهــول عاصــفةٌ
تطــوي المعــالمَ والأحــلامَ والبلــدا
وتــستبيح بــلا ذنــبٍ مرابعَهــا
وتــزرَعُ المــوتَ والأحــزانَ والكمــدا
«بغــدادُ» عاصــمةُ الــدنيا ومتحفُهــا
تناهبوهــا وداســوا مجــدَها التَلِــدا
دكّــوا بيــوتَ أهاليهــا ومــا تركــوا
أبــاً معــيلاً ولا أمــاً ولا ولــدا
ومزقــوا الأرضَ أشــلاءً مبعثــرةً
ونــصَّبوا فوقهــا الأوغــادَ والعُقَــدا
وقبلــها غمــروا القــدسَ الــشريفَ أســىً
فمثلــها لم يــرَ التــاريخُ مَــنْ صَــمدا
يــا لَلعروبــةِ كــم ذاقــتْ وكــم لقِيــت
مــن غــدرِ مَــنْ قطَّعــوا أوصــالَها بــدَدا
قَــرنٌ مــن الــدهرِ والآلام زاحفــةٌ
لــو راجــع الــدهرُ مــا أهوالُهــا ارتعــدا
كــم أغرقوهــا بــسيلٍ مــن فواجعهــا
خنــاجراً زرعــوا أرجاءَهــا ومُــدى
صــبُّوا عليهــا اتهامــاتٍ مزيفــةً
وقــدَّموا للغــزاةِ المــالَ والعــددا
وقــسَّموها كيانــاتٍ مهمــشةً
راحــتْ تحــنُّ إلى الأمــسِ الــذي فُقِــدا







وكــلُّ ذنــبٍ جنتــه أنهــا احتــضنتْ
مهـــدَ الرســـالاتِ إيمانـــاً ومعتقـــدا
آخــتْ علــى أرضـها الأديــانَ فاتحــدتْ
وضــمَّ قرآنُهـــا الإنجيـــلَ واتحـــدا
فــشَّوهوا الــدينَ والــدنيا ومــا تركــوا
إلاَّ اليتــامى وعــصراً بــات مــضطهدا
فَلْيتَّقـــوا اللهَ هـــذا الكــونُ نظَّمــه
ربٌ حكــيمٌ بغــير العــدلِ مــا وعــدا

* * *

يــا شــامُ يــا واحــةَ التــاريخ هــل تركــتْ
لــكِ المقــاديرُ إلاَّ الــصبرَ والجلــدا
مــدي يــديك إلى الأحــرار مؤمنــةً
فــالحرُّ إلاَّ لقــاءَ الحــرِّ مــا نــشدا
والعبــدُ يحيــا دفينــاً منــذ مولــده
والحــرُّ يحيــا مــدى الآبــادِ لــو وئــدا
مــا خَلَّــدَ الــدهرُ مهزومــاً بــدفترهِ
بــل خلَّــد الــدهرُ مــن صــبَّ الــدماءَ فِــدى
فأنـــت حارســـك المـــولى برحمتـــه
مــن كــلِ عــينٍ تــصبُّ الــبغضَ والحــسدا
هــذي الوجــوه الــتي هلَّــتْ ومــا حملــتْ
إلاَّ الوفـــاءَ ومـــدتْ للإخـــاء يـــدا
كــم ســرَّها أن تــرى الفيحــاءَ زاهيــةً
بالمكرمـــاتِ تـــرشُّ التيـــهَ والغَيَـــدا
ولـــنْ تنـــامَ علـــى ضـــيمٍ ونازلـــةٍ
فعزُّهـــا مـــا كبـــا يومـــاً ولا ســـجدا





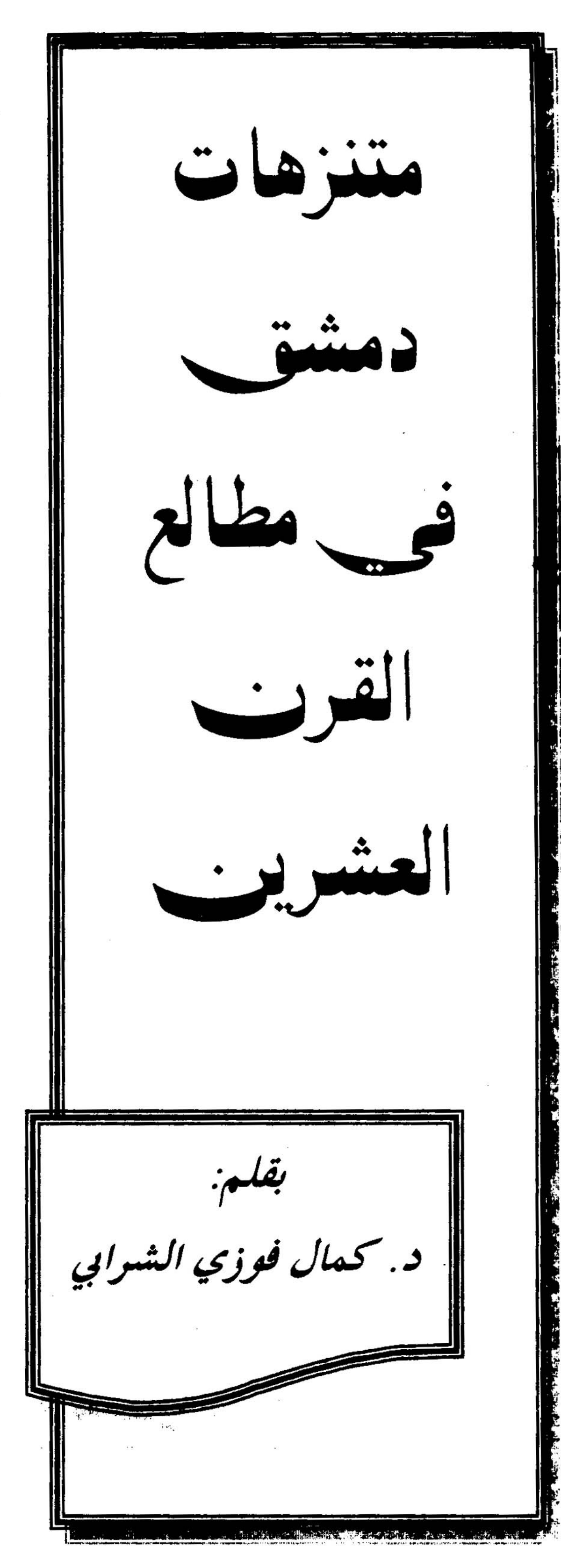


ولم يكــنْ هــضمُها ســهلاً إذا ازدُردتْ
ظلمــاً. تهــشّم أنيــابَ الــذي ازدردا
والحاقــدون علــى التــاريخ مــا حــصدوا
مــن ســوء مــا بــذروا نــصراً ولا مــددا
وســوف يلفظهــم بحــرُ الخلــودِ غــداً
وينتهــون علـــى شـــطآنه زَبَـــدا
لــو أنهــم نُــصّبوا في العــصر آلهــةً
واســتعمروا الأرضَ والأكــوانَ والأبــدا
فليعلمــوا أنَّ دنيــا الــشامِ مــا عبِــدتْ
منــذ الخليقــةِ إلاّ الواحــدَ الأحــدا

***

يــا ســادتي مــا لنــا إلاّ أخوّتُنــا
تحمــى الحمــى وتُــشيدُ الــصرْحَ والعُمُــدا
فالــشام مــن غــابر الأيــام مــا عــشِقَتْ
إلاّ المــروءةَ والأخــلاقَ والرشــدا
تظــلُّ تــذكر بالإكبــارِ قاصِــدَها
ومَــنْ يبادلُهــا حبّــاً ولــو بَعُــدا
فامــضوا علــى بركــات الله إن لكــمْ
في كــل قلــبٍ وفــاءً شــبَّ واتقــدا
وجــوهكُم طُبعــتْ في كــلِّ جارحــةٍ
وخــافقُ الــشام مــا جــافى ولا جحــدا
فــسوف تــذكُرُكُمْ تيهــاً ومفخــرةً
بعــدَ النــوى كلّمــا عــادَ الهــوى وبــدا
وســوفَ تبقــى بــإذن الله صــامدةً
وفي ضــمير الليــالي نغمــةً وصــدى



مقدمة:

يسعدني أن أبدأ دراستي بسرد بعض الذكريات من أيام الطفولة واليفاع عن متنزهات دمشق في العشرينات والثلاثينات والأربعينات من مطالع القرن العشرين.

أول ما يخطر بالبال من هذه الذكريات الحلوة يوم أن كنت طفلاً اسكن في بيت جدي المرحوم المدير العام للبرق والبريد والكاتب العلاّمة الأستاذ أحمد فوزي الساعاتي بالجادة الرابعة من طلعة شورى في حي المهاجرين. كان الأهل عندما يرغبون في القيام بنزهة أو بسيران - كما يسمونه - نهار الجمعة أو سواه من أيام الأسبوع ينتقلون ومعهم ما لذّ وطاب من المأكولات والمشروبات إلى البساتين التي كانت تنبسط بخضرتها اليانعة البهيجة ترويها مياه نهر يزيد أو نهر ثورى الصافية العذبة إلى الغرب فيما وراء جامع نافذ أفندي انحداراً بعد جادة الشمسية. ولقد تحريت من يكون نافذ أفندي هذا، فتبين لي أنه كان شخصية مرموقة ذات صلاح وتقوى وكان مديراً للتمليك بدمشق أيام حكم العثمانيين، وقد تم تجديد جامعه مؤخراً.

كانت تمتد إلى الغرب من هذه البساتين المثمرة حواكير الصبارة والآس وسواهما.

هذه ذكرى، وثمة ذكرى أخرى في الطريق ذاته الذي ينحدر بين هذه البساتين. كنا أحياناً ننطلق ونحن أطفال لنغزو هذه البساتين ونسرق من ثمارها الشهية ما تمكن سرقته، ثم ننحدر في دروب ضيقة إلى أن نصل إلى وادي كيوان الذي كان من متنزهات دمشق الشهيرة، وفيه يقول الشاعر والعارف بالله الشيخ عبد الغني النابلسي - طيب الله ثراه - وكان في هذا الوادي طاحون أو طاحونة:

لي بوادي كيوانَ مجلسُ أُنسٍ
حوله الماءُ دائرٌ في السواقي

وإذا الغـصنُ عـانق الغـصنَ مـيلاً
كـدتُ أدري المعنـى بـذاك العنـاقِ

أقول: كنا ننحدر في دروب ضيقة إلى أن نصل إلى كيوان حيث نعبر النهر إلى المكان الذي شيد فيه معرض دمشق الدولي فيما بعد، في مطالع الخمسينات، وكان هذا المكان البهي مرجاً أخضر فسيحاً كان يسمى بمرجة الحشيش حيث كنا نمارس بعض الرياضات ثم نعود أدراجنا سيراً على الأقدام كما جئنا سالكين الدروب ذاتها إلى بيوتنا.

وكانت المرجة وما يحيط بها من رياض نضرة من متنزهات دمشق أيضاً. نظم فيها الأستاذ الشيخ يعقوب الكيلاني الشامي موشحاً نقتطف منه ما يلي:

يـا رعـى اللهُ أويقـاتِ الـصفا
فـي ريـاضِ الـشام أبهـى مـوطنِ
كـم قطفنـا زهـرَ أُنـسٍ ووفـا
واغتنمنـا صـفوَ عـيشِ الـزمنِ

* * *

فـي ربـا المرجـة مـع ربوتهـا
جنـةٌ ذاتُ قـرارٍ ومعـينْ
تـدهشُ الأبـصار فـي نـضرتها
وبهاهـا إذ بـدتْ للنـاظرينْ
نـوبُ الأطيـارِ مـن ألحانهـا
تـذهبُ الهـمَّ عـن القلـب الحـزينْ

وبالمرجة ذاتها تغنى العارف بالله شاعرنا عبد الغني النابلسي - وهو من أكثر الشعراء وصفاً ومدحاً لدمشق ومتنزهاتها على امتداد التاريخ في أدبنا العربي:

مرجـةُ الـشام بهجـةُ الأبـصارِ
عطّرتهـا روائـحُ الأزهـارِ
يتمـشى بهـا لطيـفُ نـسيمٍ
صـافحت كفَّـهُ يـدَ الأنهـارِ
واقتـرابُ الربيـعِ بهجـةُ روحٍ
وانجبـارٌ للجـسم بعـد انكـسارِ
وزمـانٌ بـه قـدودُ غـصون
حـاملاتٌ لأوجـه الأقمـارِ

في مرجة الحشيش شق الفرنسيون طريقاً دائرية تحيط بها من جوانبها وجعلوا منها ميداناً للفروسية وسباق الخيل.

وثمة ذكرى غالية كثيراً على قلبي ولا يمكن أن أنساها وهي تتعلق بالطريق الممتدة من دمشق إلى الربوة مروراً بكيوان. وكانت هذه الطريق تشكل أيضاً متنزهاً من متنزهات دمشق الرائعة، تزهى على الدوام بأشجارها البواسق وأزهارها العواطر. وكنا ثلةً من الفتيان ذوي الخلق والشعور بالمسؤولية، نمارس بالإضافة إلى رياضة كرة القدم رياضة المشي، فكنا نقطع، مرة في الأسبوع، هذه الطريق سيراً على الأقدام إلى أن نصل إلى متنزه الربوة ذهاباً وإياباً بقيادة رفيق لنا كان يتمتع بروح رياضية عالية وبمشاعر تفيض نبلاً وحناناً ووفاءً، وكان اسمه عادل حضرة النقشبندي، وقد انتسب هذا الشاب الجميل إلى الكلية العسكرية بحمص بعد نواله الشهادة الثانوية وتخرج منها برتبة ملازم ثان. ثم تدرج إلى مرتبة نقيب وتزوج، وما لبثت حرب ١٩٤٨ أن نشبت مع إسرائيل فالتحق بالجبهة وحارب كالأبطال ثم استشهد في معركة تل العزيزيات مع مجموعة من ضباطنا الأشاوس. ولقد بكيته وبكيتهم جميعاً وهو مازال مع بعض من عرفتهم منهم ماثلين في خاطري. واحسرتاه على ذاك الشباب المتألق والجمال الآسر والقامة الممشوقة العملاقة والروح الوطنية العالية! رحمك الله يا عادل حضرة النقشبندي ورحم رفاقك الأبطال الميامين.

أنتقل الآن من هذه الذكريات الغالية على قلبي إلى استكمال محاضرتي بذكر أهم متنزهات دمشق في مطالع القرن العشرين وما قيل في وصفها شعراً.

١ - الغوطة الفيحاء

كان يقطن دمشق أستاذ فرنسي يدرِّس اللغة الفرنسية في مدارسها، وكان في الوقت ذاته شاعراً وصحفياً. كان اسمه ريمون لوار، وكان شاباً جميلاً، دمث الصفات والأخلاق. كتب عن دمشق قصائد ماتعة. إحدى هذه القصائد تصفها بهذ المطلع الجميل:

دمشقُ: بياضٌ يعانق خضرهْ
وفردوسُ سحرٍ يُسامرُ زهرَهْ
رياضٌ بها ألفُ غُصنٍ يغازلُ طيرَهْ

وهي قصيدة لا أذكر مع الأسف منها سوى مطلعها هذا، وقد ترجمها إلى العربية شعراً صديقي الأديب الكبير الراحل الدكتور بديع حقي. ولا أدري هل أثبتها في أحد كتبه أم كان نصيبها الضياع؟

جاء في بعض المعاجم أن الغوطة هي البساتين المحيطة بدمشق من جهات الشرق والغرب والجنوب. يطل عليها جبل قاسيون ويرويها نهر بردى بفروعه السبعة. سكنتها عدة أقوام على مدار التاريخ ومنهم الغساسنة. تحوي مختلف أنواع الثمار ولا سيما المشمش البلدي والدراق والجوز واللوز إلخ...

ولا بأس هنا من ذكر هذه الحادثة التاريخية: يروى أن الخليفة العباسي المأمون قد نظر يوماً إلى دمشق وآثارها، والغوطة وأشجارها والحدائق وأنهارها فقال: إنها خير بقعة على وجه الأرض. ثم قال: عجبت لمن سكن غيرها كيف لا يزورها لينعم بهذا المنظر الأنيق الذي لم يُخلق مثله.

ويقول عنها المؤرخ المصري شهاب الدين الخفاجي في كتابه (ريحانة الألباء) وذلك بعد أن زارها ونعم برؤية محاسن ديارها: "سعيد كل من زار بطن واديها، وتغذى بعبيرنسيمها، وتربى في حضن رياض نعيمها، وطعم من مائها العذب، وروي بذوب لؤلؤها الرطب.. حرُّها يطيب، ومنظرها كبدر على قضيب. الغوطة في جبهة الشام غُرَّة، وفي حدائقها النضْرة زهرة، وفي سماء كمالها الزاهية دُرَّة...".

وقال عنها الشاعر والعالم الكبير أبو بكر الخوارزمي: "الغوطة هي أنزه بلاد الله تعالى وأحسنها منظراً وإحدى جنان الأرض الأربع وهي الغوطة، ونهر الأُبلَّة، وشعب بوَّان، وصُغد سمرقند - يراجع معجم البلدان للجغرافي والمؤرخ ياقوت الحَموي لمعرفة مواضع هذه المتنزهات والكلام عليها - كما تراجع قصيدة المتنبي في وصف شعب بوان ومطلعها:

مغاني الشعبِ طيباً في المغاني
بمنزلة الربيع من الزمان

ويقول العالم الجغرافي الشريف الإدريسي في كتابه (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق): "إن طول الغوطة مرحلتان (المرحلة هي المسافة التي يقطعها المسافر في يومه سيراً حثيثاً على الأقدام أو على دابة) في عرض مرحلة، وبها ضياع عامرة كالمدن مثل المزة، داريا، كفرسوسة، حرستا، كوكبا، بلاس، بيت لهيا... وبها جامع قريب الشبه بجامع دمشق، وفي بابها الغربي واد اسمه وادي البنفسج، وأغلب الظن أنه سمِّي كذلك لأن البنفسج كان يزرع فيه.

وذكر الجغرافي والرحالة العربي شمس الدين المقدسي في كتابه (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم): "إن الغوطة تكون مرحلة في مثلها، ولجمالها وبهائها يعجز اللسان عن وصفها".

أما المؤرخ الدمشقي شمس الدين محمد شيخ الربوة، وهو مشارك في بعض العلوم وولي مشيخة الربوة، فيقول في مؤلفه (نُخَبُ الدر في عجائب البر والبحر): "إن الغوطة هي خيرة دمشق ناحيةً، طولها ثلاثون ميلاً وعرضها خمسة عشر، تشتبك فيها القرى والضياع، ولا تكاد الشمس تقع على أرضها لاحتفاف أشجارها والتفاف أزهارها".

وتغنى الشاعر وجيه الدولة بن حمدان بمفاتن الغوطة ومحاسنها شعراً، وبالنظر إلى اتساعها قسمها في شعره إلى غوطة شرقية وغوطة غربية، وذلك في قوله:

سقى اللهُ أرضَ الغوطتين وأهلَها
فلي بجَنوب الغوطتينِ شجونُ
وما ذقتُ طعمَ الماء إلا استخفني
إلى بَرْدِ ماءِ النيربين حنينُ
وقد كان شكي بالفراقِ يروعُني
فكيف أكونُ اليومَ وهو يقينُ
فوالله ما فارقتكمْ قالياً لكم
ولكنَّ ما يُقضى فسوف يكونُ

٢ - النيربان وقبة السيّار

بحثت في شتى المعاجم عن معنى كلمة (النيرب) فلم أعثر إلا على هذا المعنى: يقال يذبت الريح التراب فوق الشيء أي نسجته. وعلى هذا، يمكن تجاوزاً تسمية منطقة النيربين أو متنزه النيربين بالأحرى "مهوى التراب أو الغبار الذي كانت الريح تنخله لدى هبوبها من أعالي قاسيون ومن فجواته وشعابه على البساتين الناضرة التي كانت تمتد من آخر خط المهاجرين إلى الغرب حتى مشارف الربوة"، وكانت هذه البساتين تزهو بكل نوع من أنواع الثمار، تضاف إليها زراعات الآس والعصفر وإلى الشرق منها حواكير الصبارة.

وكانت هذه التسمية تشمل قرية كانت تعد قديماً من المتنزهات البهيجة المقصودة. ولم يبق منها سوى الاسم.

قال ياقوت الحموي في (معجم البلدان): "موضع النيربين هو أنزه موضع رأيته".

وسمي متنزه النيربين كذلك لأنه كان ينقسم إلى متنزهين هما النيرب الفوقاني والنيرب التحتاني.

ويقول عاشق دمشق وشاعرها المبدع العارف بالله النابلسي في النيرب الفوقاني ويدمج أحياناً التغني بالنيربين معاً الفوقاني والتحتاني:

وهبَّت صَبا من قاسيون فحركتْ
صبابةَ قلب قلَّبته يدُ البعد
وشطَّ يزيدٌ زاد قلبي تولعاً
بمن شطَّ عنيٍ والأضالعُ في وقد
وقد عطفت بالنيربين حديقةٌ
علينا فمنها نحنُ في جنة الخلد
سقى اللهُ ذاك العهدَ ما كانَ في الربا
ألذ وأهنا منه يوم اللقا عندي

وله موشح لطيف يتغنى فيه بالنيربين أيضاً مطلعه:

يا نسيماً خاض ماءَ النيربينِ
وأتانا وهو مبلولُ اليدينِ
هات حدثّنا عن الأحباب هل
هم بذاكَ السفحِ أم بالربوتينِ

ثم يقول في المقطع الثالث من هذا الموشح الجميل:

يا لَعمري هل أرى تلك الربوعْ
وتَقَرُّ العينُ بالبرقِ اللموعْ
ولماضي عيشنا هل من رجوعْ
في ظلالِ المنحنى والواديينِ

وينشد الشاعر الدمشقي العلامة السيد محمد المحاسني - وهو من أسرة المحاسني التي اشتهرت بالوجاهة ونبغ منها عدة علماء وشعراء - :

والحواكيرُ التي قد نفحتْ
في زهورِ الياسمينِ البهجِ
وبأرضِ النيربين انفتحت
أعينُ الزَهر بطيب الأرجِ
وزنادُ البسط فيها قَدَحت
للذي يقرعُ بابَ الفرجِ

وقال بعض المؤرخين: "إن متنزه النيربين كان على الأغلب يمتد من أسفل التلة التي تقوم عليها قبة السيار إلى منافذ جبل الربوة. ويقال إن قبة السيار تنسب إلى متعبد اسمه سيَّار كان هو وأخوه بشار يتعبدان على رأس التلة المنحدرة من جبل قاسيون إلى الجهة الغربية من دمشق. ويقال إن هناك من بنى لهما قبتين ليتعبد كل واحد منهما في قبة، ثم لم يبق مع مرور الزمن والحدثان سوى قبة واحدة هي القبة التي يُطلق عليها اسمَ قبة السيار.

ويقول شاعرُنا وإمامُنا العارفُ بالله النابلسي في ذكر قبة السيار والتغني بها:

أتينا قبةَ السيَّارِ يوماً
مع الأصحابِ نركضُ في الصباحِ
وقد كان المسيرُ على رياضٍ
معطرة بأنفاسِ الرياحِ
فغنَّتْ ساجعاتُ الدوح فينا
مهيمنةً بألسنة فصاحِ
فيا لك قُبةً رُفعتْ وطارت
على نسرِ السماء بلا جناحِ
تبثُ بها النسائمُ عَرْفَ زهرٍ
من الوادي وجناتِ النواحي

وهناك متنزه كنا نرتاده إلى ما قبل أربعين عاماً اسمه (أرض الوالي)، وكان يقع في آخر خط أو شارع المهاجرين. وكان فيه مقهيان كنا نجلس في أحدهما لنتمتع بمرأى الخضرة في النيربين ومرأى دمشق وغوطتها على امتدادها الزمردي الضاحك، وننهمك بعد إمتاع أنظارنا في الدراسة ونحن شباب على أبواب الشهادة الثانوية.

٣- الصالحية

ومن متنزهات دمشق التي درست وحلت محلها الأبنية والشوارع محلة الصالحية. وما يزال الشارع الذي يمتد مما يعلو محلة العفيف إلى تمثال البطل الخالد يوسف العظمة يسمى شارع أو طريق الصالحية.

يقول المؤرخ صلاح الدين الصفدي في تاريخه الشهير: "من محاسن الشام الصالحية، فيها مدارس وقصور جميلة..." وبعد أن يذكر كيف تلاعبت بالصالحية أيدي الطامعين فخربوها واستولوا على أحباسها وأوقافها يقول: "فيا شَوْقاه لحسن الجركسية وحلاوة الركنية، ويا لهفاه على جامع الأفرم والناصرية، وفي الصالحية نهران يجريان وهما ثورى ويزيد، ولكم عليهما من أبنية أنيقة وقصور مُشيدة، ويذكر أن شخصاً له مكانته واسمه شمس الدين الصائغ الحنفي لما قدم من القاهرة إلى دمشق نزل في الجسر الأبيض عند الأمير مجد الدين بن تميم، وجلس بجانب نهر ثورى فرأى الفواكه تمر على وجه الماء في قصر الأمير فمد يده وأخذ يلتقط ويأكل منها ما استطاب. ثم قال لمضيفه: أفلا تستغنون بما يأتي به هذا النهر وبما يُفيض به فضلُه عن شراء الفاكهة، فأجابه الأمير مرتجلا:

يقول وقد رأى ثورى خليلي
يفيض بطيِّب الثمرات فيضا
أيكفيكمْ فلا تشرونَ شيئاً
فقلتُ له: نَعَمْ، ونبيعُ أيضا

وروت لي جدتي لأمي يرحمها الله أن بيت أسرتها كان يقع في الصالحية على نهر ثورى، وكانت وهي طفلة تلتقط الثمار التي يأتي بها النهر من البساتين بعد تساقطها فيه وذلك خلال مجراه من الربوة إلى النيربين إلى الصالحية. وذكرت الأديبة الكبيرة السيدة ألفة الإدلبي في أحد أعمالها أنها كانت تفعل الشيء ذاته على النهر ذاته عندما كانت طفلةً صغيرة.

ويُنسبَ اسمُ الصالحية إلى من عاش فيها من أولياء ومتعبدين وأناس صالحين كانوا يخافون الله ويعبدونه آناء الليل وأطراف النهار. يقول العارف النابلسي في قصيدة طويلة يمدح بها دمشق:

والصالحيةُ يا لها من منزلٍ
فيها مقرُّ الصالحين أولي التقى
وبها القصورُ العالياتُ تزخرفت
مثلَ النجومِ زهت بكلِّ من ارتقى

ويقول في قصيدة أخرى:

جُلقُ الشام جنةُ الخلد تجري
بالسواقي من تحتها الأنهارُ
شاهدي صالحيةٌ هيَ فيها
وهي أيضاً للصالحين قرار

ويقول في مدح الصالحية شاعر دمشق وأحد أمرائها الأمير منجك:

نزلنا الصالحية في العشايا
فأغنانا الضياءُ عن الضياءِ
وأبواب القصور لها صريرٌ
ألذُّ لمسمعي من صوت نائي

[نائي: أي الناي]

ويروي المؤرخون أن أهلَ الصالحية كانوا يهادون سكانَ مدينة دمشق بالبلح والأُترُجّ (الكباد) وسواهما لحسن نمو هذه الثمار عندهم. وكانت متنزهاتها الخصبة تنتج الصنوبر والموز وقصب السكر.

وذكر بعض المؤرخين أن منطقة الصالحية اشتهرتْ باسم (قرية النخل)، وكان فيها إثنا عشر ألف نخلة، لكن تيمورلنك وجنوده المغول قد أبادوها بأكملها وذلك في سنة ثلاث وثمانمئة هجرية. قال الشاعر البهائي في نكبات دمشق أيام هذا الطاغية السفاح:

لهفي على تلك البروجِ وحسنها
حفت بهن طوارقُ الحدثان
لهفي على وادي دمشقَ ولطفه
وتبدِّل الغُزلان بالثيران
أبني أميةَ أينَ سيفُ وليدكم
والمُغْلُ تقتلُ في ذرى الأركانِ
غابت بدورُ الحسن عن هالاتها
فاستُبدلت من عزِّها بهوان

وهي قصيدة طويلة انتقينا منها هذه الأبيات، وهناك قصائد كثيرة في الإشادة بمحاسن الصالحية يضيق المجال عن ذكرها كلها.

٤- متنزه الربوة

وننتقل الآن إلى الربوة، هذا المتنزه الشهير الجميل الذي تستقبل به دمشق أهلها وزوارها بالخضرة والماء والنسيم العليل والمطاعم والمقاصف والملاهي الزاهرة.

قال المؤرخ الدمشقي المشهور محمد بن طولون: "أعظم متنزهات الشام الربوة، وكانت عامرة بالقصور والجواسق وبالدكاكين والمساجد

وفيها مدرسة يقال لها المنبجية. فإذا صعدتَ أحدَ أدراج هذه الربوة العامرة أطللت على نَهرَيْ ثوري ويزيد. وكان فيها بناءٌ واسعٌ شيَّده نورُ الدين الشهيد ليأوي فيه الفقراء على اعتبار أن للأغنياء قصورهم، وفي ذلك يقول الشاعر الدمشقيَ تاج الدين الكندي:

إن نورَ الدينِ لما أنْ رأى
في البساتين قصورَ الأغنياءْ
عمَر الربوةَ قصراً شاهقاً
نزهةً مطلقةً للفقراءْ

ويقول الشاعر والمؤرخ صلاح الدين الصفدي متغنياً بالربوة:

انهضْ إلى الربوةِ مستمتعاً
تجدْ من اللذات ما يكفي
فالطيرُ قد غنّى على عوده
في الروضِ بين الجُنْك والدُّف

وللسيد عبد الكريم الحمزاوي، وكان نقيباً للأشراف وشيخ المشايخ فيها، موشحٌ لطيفٌ يصف به الربوة نقتطف منه المقطع الأول:

يا زماناً بالتهاني سلفا
في ربا جلّق ذات الحَسن
لم أجدْ بعدكَ يوماً خلفا
لا عدت ذكراكَ رطبُ الألسنْ
كم بلغتُ الحظَّ في ربوتها
إذ غدتْ ذات قرار ومَعينْ
ولُبانــاتي بها بلغتُها
حيثُ من أهواه لي طوعُ اليمينْ
يا لها من ربوة نضرتها
صيقلُ الأبصار والقلبِ الحزينْ
لا عدمناها لقصف مألفا
ولجمعِ الشمل أزهى موطنْ
وسقتها المزنُ منها ماصفا
وشؤونُ الدمعِ ماءَ الأعين

ولقد فاضت قريحة شاعرنا العارف النابلسي في التغني بدمشق ومتنزهاتها. يقول في ذكر الربوة:

يا حبذا الربوةُ من دمشقْ
بالفضل حازت قصبات السبَق

ولدينا عدة قصائد وموشحات لبعض الشعراء المجدِّدين من أهل العلم والفضل بدمشق، وكلها تتغنى بعاصمة الأمويين وبالمتنزهات المحيطة بها، نكتفي بأن نشير إليها فقط من دون ذكرها دفعاً للإطالة.

٥- متنزَّه دمر

يقال إن اسم هذه البلدة يُنسب إلى اسم أميرٍ قديم كان يحكم هذه البلاد واسمه دمر.

ودمر جنة خضراء ناضرة فيها تتدفق غزيرةً مياهُ بردى ترفدُها مياهُ عين الفيجة.

اشتهرت دمر بحديقتها العامة (المنشية). وكان فيها مطعم ومقصف واسع على ضفة بردى اسمه (قصر شمعايا)، وقد زال منذ نحو نصف قرن.

وكان في دمر معمل لاستخراج الاسمنت كان بدخانه الكثيف يلوث المنطقة ويزعج سكان الوادي. ثم آل أمره إلى التوقف.

ودمر بلدةٌ عامرةٌ بكل متطلبات الحياة والحضارة. وفي الطريق التي تمتد من الربوة إليها نجد مطاعم ومقاصف وقصوراً أشهر هذه القصور قصر الأمير عبد القادر الجزائري ثم آلت

ملكيتهُ إلى الأمير سعيد الجزائري، ومازال قائماً وإن يكن قد اعتوره بعض القدم والتغيير.

وشطّر أستاذُنا الجليل الشيخ محمد المبارك أبيات الأمير العالم عبد القادر الجزائري وقد نظمها في مدح قرية دمر وقصره فيها.

يقول أستاذنا المبارك:

عـجْ بـي فـديتك فـي مفـاتن دمـرِ
نرتـعْ بواديهـا البهـيجِ الأخـضرِ
وأدرْ سُلاف الأُنـس فـي ربواتهـا
ذاتَ الريـاض الزاهـرات النـضَّرِ
ذاتَ الميـاه الجاريـات علـى الـصفا
كفرائـد مـن لؤلـؤ أو جـوهرِ
والطيـرُ فـي أدواحهـا متـرنمٌ
أبـداً تـرنمَ والـهٍ متحيـرِ

والقصيدة طويلة نكتفي بهذا القدر منها.

ومن قصور دمر الباذخة الأنيقة قصر دولة السيد خالد بك العظم رئيس وزراء سورية الأسبق. وقد تحول منذ أكثر من أربعين عاماً إلى مطعم ومقصف.

ومن الشعراء الذين تغنوا بدمر صديقي الشاعر العراقي الراحل أحمد الصافي النجفي في قصيدة أكتفي بذكر البيت الأول منها:

دمـر ماؤهـا علـى الـدرِّ يجـري
كمرايـا تكـسَّرت مـن لجـينِ

٦ - *متنزه الهامة*

نصل إلى متنزه الهامة أو مصيف الهامة وينبوعه العرّاد. وهل لي أن أنسى هذا الفردوس الذي كان يضمُّ بيتَ صديقي الشاعر والفيلسوف عزمي موره لي قبل أكثرَ من أربعين عاماً، وقد أصبح الآن ببعض بساتينه المحيطة به معملاً للجعة باسم (بردى).

يقول المؤرخ والشاعر محمد الراعي الدمشقي بعد أن يتغنى في قصيدة طويلة بجميع متنزهات دمشق:

يـا صـاحبيَّ ونـارُ شـوقي هيجـا
وعِّرجـا بـي نحـو وادي الفيجـا
وأطربـا سـمعي بـذكرِ الـوادي
وادي الفتـون ومنبـعِ العـراد
ونهـره الطـامي البهـيِّ المنظـرِ
ولـيس مـرأى العـينِ مثـلَ المخبـرْ

مازلت أذكر جيداً دار عزمي هناك بدرجها الحجري المطل على الطريق العام، وشجرة الليلك المعرشة بقناديلها الحمراء الوضيئة فوق فسحة أو باحة الدار، والأشجارِ البواسقِ وقد جعل عزمي من إحداها عرزالاً شاعرياً وضع فيه مائدة وكراسي، وكنا أحياناً نجلس فيه، كما جعل فوق ساقية العراد التي تمر ببساتينه المحيطة بالبيت خيمةً من القصب كنا نسهر فيها على قنديل زاه ومقاعد صغيرة، ونبرِّدُ أقدامنا بماء تلك الساقية ونحن نحتسي ما لذَّ من المشروب ونلتهم ما طاب من المأكول.

سقى الله تلك الأيام ما كان أجملها وأصفاها وأمتعها. وتحيةٌ من أعماق القلب إلى صديقي عزمي فيما وراء الحجُبُ على حدِّ تعبيرِ صديقي الشاعر الكبير سعيد عقل.

٧- *متنزه المَزَّة*

يقال إن كلمة المَزَّة يونانية ومعناها التلة أو الربوة، وورد في معجم المنجد ما يلي: "المزة الخمر اللذيذة الطعم/ المصَّة. ويقال: ما بقي في الإناء إلاّ مزةٌ أي قليل/ والمُزّ: ما يكون طعمُه بين الحلو والحامض".

والمزة بلدة قديمة جميلة كانت تدين بالولاء للأمويين، وقامت فيها عدة ثورات ضد حكم العباسيين. وتعتبر الآن قطعة من دمشق أو

امتداداً لها بما تحويه من دور أنيقة، وأسواق عامرة ومشاف لعلاج مختلف الأمراض.

واشتهرت المزة خصوصاً بتينها اللذيذ. يقول العارف النابلسي في إحدى قصائده الموقوفة على مدح دمشق وجوارها:

في قريـة المـزَّة جئنـا هـا بـالإكرام وعـزّه
وأكلنـا التـينَ فيهـا هـو حلـوٌ وهـي مـزَّه

وهناك شاعر دمشقي من المجوِّدين اسمه نجم الدين الطَّرسوسي، كثيراً ما تغزّل بدمشق وضواحيها ومصايفها. ومما قاله في بلدة المزة وتينها هذان البيتان:

بالمزة التـينُ زاك فـي حلاوتـه كفـوفُ أوراقـه مُـدَّتْ علـى الأَسَـلِ
لمـا تبسَّم فـي أغـصانه سـحراً سـالت مراشـفُه بـالقَطْرِ والعسلِ

٨- *متنزه عين الفيجة*

وهي المتنزه المشهور الذي تشرب دمشق من مائه الطيب البرود. ويقول المؤرخون إنها كانت مزروعة بأشجار القراصيا، وكان إنتاجها من هذه الثمرة وفيراً، ولذلك كانت تُصَدَّرُ منها أحمالٌ إلى سلاطين مصر أيام حكم المماليك.

وللقراصيا أغنية قديمة من أغاني التراث المشهورة يغنيها مطربو حلب وعلى رأسهم المطرب الكبير صباح فخري، وكلنا نعرفها. وروى لي الوجيه الكريم السيد توفيق الحبوباتي مالك نادي الشرق ومستأجر فندق بلودان الكبير للاستثمار على مدى سنوات لا تحصى، وصاحب الأيادي البيض على السياحة في بلدنا، أن مطرب الأجيال الموسيقار النابغة محمد عبد الوهاب كان يحرص خلال إقامته في الفندق المذكور، في فصول الصيف التي كان يزور سورية فيها، على أن يقدم له يومياً مع وجبة العشاء مربّى القراصيا، وهي نوع من أنواع الخوخ الصغير الأسود الحلو.

تغنى الشعراء بعين الفيجة وأشهرُهم أستاذُنا الجليل الشيخ محمد المبارك طيبَ الله ثراه. والقصيدة طويلة أكتفي بذكر هذه الأبيات منها، وفيها يمدح أستاذنا عين الفيجة وقريتها الفيحاء:

عـرِّجْ علـى أرجـاء عـين الفيجـهْ وانـشُق شـذا ذاك الحمـى وأريجـهْ
هـو شـامةٌ فـي وجنـةِ الـشام التـي هـي جنـةٌ وبهـا النفـوسُ بهيجـه
فاضـت بـه عـينٌ لقـد أجـرى الحيـا منهـا إلـى مغنـى دمـشقَ خليجـه

ثم ينتقل إلى انضمام مياه بردى إلى مياه هذه العين:

لكنمـا بـردى يكـدر صـفوها والـدهر يبـدي فـي الـصفاء مزيجـه
نهـرٌ بهـا ألقـى عـصا تيـاره يرجـو بحـسنِ جوارهـا ترويجـه

ويبين الشاعر بعد نفور العين من ماء النهر ودلالها تجاهه كيف رضيت أخيراً أن تقضي له وطره مُرغمة إذ لا سبيل يرضي الطبيعة إلاّ هذا السبيل:

مزجت لذيذ مُجاجها بأُجاجه
كم لذةٍ بمرارةٍ ممزوجهْ

لولا حَلاها ما تمثَّل طائفاً
بدمشق يُبدي للرياض عجيجه

٩- متنزه داريا

كانت داريا مشهورة بعنبها الديراني ذي الحلاوة الحادة اللذيذة، كما اشتهرت بجوها اللطيف، ومن منا لا يذكر أو لم يحفظ على مقاعد الدراسة قصيدة البحتري الرائعة التي يأتي في مطلعها على ذكرها:

العيشُ في ليل داريا إذا بَردا
والراحُ نمزجُها بالماءِ من بردى

ليل رطيب، وراحٌ مقطرة من عناقيد العنبِ الديراني، وماءٌ برودٌ زلال، تلك لعمريَ متعةُ الحياة والعيشِ كما وصفها شاعرنا البحتري.

ولقد وقعتُ في بعض مطالعاتي على أبيات ثلاثة تُشيد بجمال داريا وليالي الغناء والسِّحر فيها - وكانوا يسمونها في الماضي داريا الكبرى - وذلك لشاعرٍ يدعى نجم الدين الطرسوسي - وهو شاعر مجوِّد - وكان فيها يسهر مع جماعة من الأعيان. يقول:

يا ليلةً نامتْ عيونُ زماننا
عنّا بها وعيوننا أيقاظُ
ولنا قلوبٌ بالسرور تقلّبت
ولنا إلى وجه المنى ألحاظُ
وكأن داريا فَمٌ غنى بنا
وكأننا لغنائه ألفاظُ

أبياتَ بديعة فيها إبداعٌ وطرافة وعاطفة، رحم الله قائلها، تصوروا فم امرأة حسناء أو أفواهَ عدة نساءٍ حسانٍ ذوات أصواتٍ بهيجة يغنين ونحن في حضراتهن قد أصبحنا من شدة الوجد والطرب ألفاظاً في أفواههن تسكر بالخمرة والألحان والعبير.

وللشاعر الكبير أبي بكر الصنوبري قصائد في التغني بدمشق ومتنزهاتها، يذكر داريا في إحداها ببيت واحد إذ يقول:

ونعم الدار داريا ففيها
صفا لي العيش حتى صار أريا

وبعد، فمتنزهات دمشقٍ لا تحصى، ومن غير الممكن الإحاطةُ بها جميعاً، لذلك أكتفي بما أوردته عن بعضها وأُنهي بالعودة إلى قصيدة أبي بكر الصنوبري في مدح دمشق ومتنزهاتها:

أمرِّ بدير مُرَّانٍ فأحيا
وأجعلُ بيتَ لهوي (بيتَ لهيا)
ويُبْردُ غُلّتي بردى فسقيا
لأيامي على بردى ورَعيا
ولي في باب جيرونٍ ظباءٌ
أُعاطيها الهوى ظبياً فظبيا
ونعمَ الدارُ داريا ففيها
حلا لي العيشُ حتى صارَ أريا
صفت دنيا دمشقَ لقاطنيها
فلست ترى بغيرِ دمشقَ دنيا
تفيضُ جداولُ البلّور فيها
خلالَ حدائقٍ يُنبتن وشيا
مظللةٌ فواكهها بأبهى المنـ
ـاظرِ في نواظرِنا وأهيا
فمن تفَّاحةٍ لم تعدُ خداً
ومن رُمانةٍ لم تخْطِ ثديا

وهكذا نرى أن شاعرنا الصنوبري تغنى بالثدي قبل أن يتغنى به ويحسن التغني والأوصاف شاعرنا الكبير نزار قباني طيّب الله ثراهما معاً.




مجد الشام..

شعر الدكتور: رضا رجب

ما العيدُ؟ يسألني الأحبابُ: ما العيدُ؟
والشّامُ فوقَ فمي لحنٌ وترديدُ
بعثتِ لي بكتابِ الحبِّ من سنةٍ
فكيفَ يصحو – وأنتِ الخمرُ – معمودُ؟
أميرةَ الحبِّ يا شامَ العلى... سكرتْ
روحي وخمرتُها أهدابكِ السُّودُ
فديتُ عينيكِ إنْ مرَّ الضُّحى بهما
لا كانَ بعدهما عينٌ ولا جيدُ
يا نخلة الشَّرق لا ظلٌّ ولا ثمرٌ
لولاكِ تُرزقُ من نُعماهما البيْدُ
من راحتيكِ يصوغُ الغارُ خضرتَهُ
ومن حليبكِ يُسقى العزَّ مولودُ
يا شامُ عدتُ وأوراقي مبلَّلةٌ
بالياسمين وعطرُ الشَّامِ معبودُ
أمشي إلى الغوطةِ الفيحاءِ تسبقني
إلى العناق الأغاني والمواعيدُ
بيني وبينكِ من وجدٍ ومن شجنٍ
ما لا يبوحُ به للكرمِ عنقودُ
أنتِ السَّلامُ لقلبي حينَ يقلقني
من أيِّ عاصفةٍ في الأرض تهديدُ
حبيبتي يا دمُشقُ... الذّكرياتُ على
ثغري صلاةٌ... وفي كأسي عناقيدُ







وكلَّمـــا مـــلَّ منِّـــي الآهُ ظلَّلـــني
غــصنٌ مـــن الغوطـــةِ الفيحـــاء أملــودُ

إنْ قلـتُ: يـا شـامُ! سـالَ الطِّيـبُ مِـن وتـري
كأنَّمـــا مـــن صـداهُ يــسكرُ العـــودُ

أنـــتِ الأمـــيرةُ... وَرْدُ الحـــبِّ تفرشُـــهُ
علـــى سـريركِ - يـــا شـــامُ - الزَّغاريـــدُ

وســيفُكِ الفَــصْلُ إن ســاحُ الجهـــادِ دعـــا
وأهلُـــكِ اليعربيُّـــونَ الأماجيـــدُ

أنـــا - دمـــشقُ الـــتي سمَّيتُهـــا - بـــردى
وشـــمٌ علـــى زنـــدِها الفـضِّيِّ موجـــودُ

والغـــارُ أقـــسمُ لـــولا غُــرَّةٌ سمخـــتْ
لا رايـــةٌ غارُهـــا بالنَّـــصرِ معقـــودُ

والأصـــيدُ الفـــارسُ البـــشَّارُ طلعتـــهُ
نـــورٌ بـــهِ يستـــضيءُ الفِتْيَـــةُ الـــصِّيدُ

حمـــى العروبـــة مـــن ضـيمٍ ومـــن خطـــرٍ
وبايعتْـــهُ الميـــامينُ الـــصَّناديدُ

تعلَّـــم الجـــودُ والإقـــدامُ مـــن يـــدهِ
فمـــا يفارقهـــا الإقـــدامُ والجـــودُ

إنْ قيـلَ: للمجـدِ مـن؟ قـال العلـى: أسـدٌ
كأنَّـــهُ وحـــدَهُ بالمجـــدِ مقـــصودُ

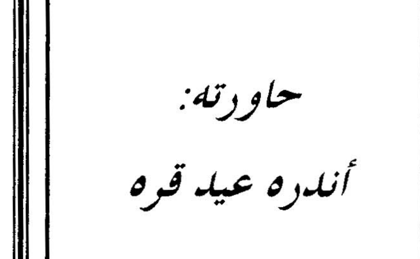
يـــا شـــامُ عـــدتُ وأوراقـــي مبلَّلـــة
باليـــاسمين... وعطـــرُ الـــشَّامِ معبـــودُ

يـــا عاشـــقينَ... اقـــرؤوا مجـدَ الـشآمِ ويـــا
كـــلَّ الغَيـــارى إلى أفيائِهـــا عُـــودوا




دمشق واحتفاليتها..

لقاء مع الدكتور جورج جبور



حاورته:
أندره عيد قره

دمشق مهد الحضارات، ومازالت محجاً للكثيرين من ناهلي العلوم المختلفة..

هي عبق التاريخ ورائحة الكبّاد المعتق في ذكريات الكثيرين من أهلها وزوارها..

يجول في خاطري أن أبدأ حواري هذا بسرد حكاية عن آخر خلفاء بني أمية في دمشق (مروان الثاني) فقد آثر عبد الحميد الكاتب عن نفسه حين قال له: "انجُ بنفسك يا عبد الحميد؟؟" فردّ عبد الحميد مندهشا: "وأتركك؟؟". فأجابه الخليفة: "نعم، فلو ظفروا بي لخسرني أهلي! أما لو ظفروا بك أنت لخسرك العرب جميعا".

- **هذه هي دمشق منذ القديم وكل واحد منا ينظر إليها بعينيه هو، فكيف يرى الدكتور جورج جبور دمشق وهي تتوج عاصمة للثقافة؟**

**** من المنطقي أن أقول: ما ترك المتقدمون للمتأخرين شيئاً. كنت أقرأ عن الشام وفضلها في الأحاديث النبوية الشريفة. تمنيت لو تصدر هذه الأحاديث في كتاب واحد ومعها شروحاتها.**

أما بالنسبة لي، فدمشق هي المكان الذي تكونت به شخصيتي. فقد أتيتها من صافيتا يافعاً، وأقمت بها معظم العمر، وفيها مارست العمل العام بأنواعه المختلفة، السياسية والفكرية والاجتماعية. ومنذ الأيام الأولى في دمشق تولد لدى جميع أفرد العائلة انطباع لم يتغير عن روح العيش الواحد، وطنياً وقومياً، الذي يغني الجميع في المدينة العريقة. أقمنا في مبنى حديث في شارع الروضة. كانت مبانيه قليلة العدد لم تستأصل منه - بعد - بساتينه. وكان أول من زار السيد الوالد، رحمه الله، مباركاً إقامته، جاران في المبنى، هما الشيخان الجليلان محمد رشيد الفرا وحمدي الحلبي، رحمهما الله. وفي دمشق تعرفت على عربات الخيل التي كانت ترابط على مسافة غير بعيدة من المنزل. وكان من دواعي الاغتباط الحقيقي عادتنا في اكتراء عربتي خيل لكي تنقل أفراد العائلة من المنزل إلى الكاتدرائية المريمية للروم الأرثوذكس

للمشاركة في الاحتفالات الدينية هناك بمناسبتي الميلاد المجيد والفصح المقدس.

- جاء في خطاب السيد الرئيس بشار الأسد والذي ألقاه بمناسبة الاحتفالية: "دمشق عاصمة للثقافة العربية يعني أن تكون عاصمة للكرامة العربية، تمنحنا الإحساس القوي بالعزة القومية والإنسانية" لن أقول ما رأيك بهذا القول بل ما مدى تأثرك به وأنت الذي عايش الحياة الثقافية والسياسية عن كثب؟

** أحببت جداً التعبير الذي جاد به الرئيس بشار الأسد: في ١٩/ ١/ ٢٠٠٨ ، هذا الكلام البليغ الرائع. وقبل الافتتاح الرسمي للاحتفالية بأشهرٍ، وبالتحديد في ١٦/ ٩/ ٢٠٠٧ كتبت مذكرة إلى من يهمه الأمر تتضمن بعض تواريخ قد يكون لتذكرها مكان في برامج الاحتفالية. إذ أنظر الآن إلى تلك القائمة من التواريخ أرى أنها على أتم انسجام مع ما أحب السيد الرئيس من الاحتفالية أن تمنحنا إياه، أعني بذلك الإحساس القوي بالعزة القومية الإنسانية.

- كل منا ينظر إلى الثقافة من الزاوية الأوضح إلى رؤاه ومداركه ومخزونه الثقافي وبالتالي يختلف نوع المواضيع أو المقترحات المطروحة، وقد ذكرت في أكثر من مناسبة بعض الاقتراحات حول جدول الأعمال الاحتفالية فما هو أبرزها؟

** اقترحت أن يكون ثمة اهتمام بذكرى شخصية سورية فذّة على الصعيدين العلمي والدبلوماسي. في عام ١٩٠٨، ذهب أول وزير مفوض عثماني إلى واشنطن. ذلك الوزير المفوض كان دمشقياً هو أحمد عزت باشا العابد، أول من كتب في الدولة العثمانية عن القانون الدولي. اختاره السلطان العثماني لتمثيله في دولة كان لها أن تلعب في القابلات من الأيام دوراً كبيراً. لماذا لا تهتم الاحتفالية بمئوية بعثته إلى واشنطن؟

كذلك رأيت أن من المناسب اهتمام الاحتفالية بالذكرى الأربعين لوفاة المفكر القومي ساطع الحصري.

- في صبيحة يوم ٢٥/ ١٢/ ٢٠٠٧ نشر لك مقالاً في جريدة الوطن وقد طالبت بتأسيس رابطة باسم الحصري إلى أي مدى وجدت تجاوباً إعلامياً تنفيذياً حول هذا الموضوع؟

** عندما ظهر المقال في (جريدة الوطن) اتصل بي السيد أحمد الحسن وزير الإعلام الأسبق وهنأني على المقال وعلى فكرة تأسيس رابطة باسم رابطة أصدقاء ساطع الحصري. والفكرة ماتزال موضع نظر، وقد تأخذ مساراً تنفيذياً في نيسان القادم أو في أواخر العام حين تحل الذكرى الأربعون لوفاة الحصري. ثم تباحثت في الأمر مع عديدين وأجريت بعض المقابلات الإعلامية عن ساطع الحصري داعياً إلى ضرورة إحياء ذكراه من جهة، وضرورة تجديد الفكر القومي من جهة ثانية. ومن المفيد أن أستعيد أمامك أنني في الذكرى العشرين لوفاة الحصري عام ١٩٨٨ أثرت موضوع إنشاء رابطة أصدقاء ساطع الحصري، وكان ذلك من خلال محاضرة ألقيتها في اتحاد الكتاب العرب. آنذاك استقطبت الفكرة بعض كبار مثقفينا مثل الدكتور نور الدين حاطوم، والدكتور عبد الكريم رافق والدكتورة خيرية قاسمية والدكتور محمود السيد. عقدنا عدة اجتماعات أولها في مكتبي في القصر الجمهوري، وبعضها في عمادة كلية التربية حيث كان الدكتور السيد عميداً للكلية. وما أزال أرى مفيداً إنشاء رابطة باسم رابطة أصدقاء ساطع الحصري تضم شمل المفكرين العاملين على تجديد الفكر القومي، ولا سيما أن نشاط الحصري كان ملموساً بل ومستقطباً في عواصم عربية أربع ذات تميز ثقافي هي دمشق وبغداد والقاهرة وبيروت.

- نعود إلى قائمة التواريخ التي تضمنتها مذكرتك في ١٦/ ٩/ ٢٠٠٧ أي قبل البدء بالاحتفالية ونتمنى لو تذكر لنا أهم بنودها؟

** ضمت بنداً قوميا هاما هو ذكرى النكبة، أي ذكرى /٦٠/ سنة على قيام إسرائيل، ومع ذكرى النكبة الذكرى الـ /٦٠/ لصدور القرار /١٩٤/ الذي يثبت للفلسطينيين حق العودة. كذلك تضمنت بندين إنسانيين يمنحنا الاهتمام بهما إحساساً قوياً بالعزة الإنسانية.

في آب ١٩٢٨ كان توقيع وثيقة إنسانية كبرى تحرم الحرب العدوانية. انضمت إلى هذه الوثيقة خلال عشرة أعوام من فتحها للتصديق /٦٣/ دولة. هي لا ريب لم تستطع منع نشوب الحرب العالمية الثانية، لكنها وثيقة إنسانية كبرى ومفصلية. ما أحرى دمشق عاصمة الثقافة العربية أن تظهر انفتاحاً إنسانياً في الشأن السياسي - وليس في الشأن الديني فقط - فتدعو رؤساء العالم إلى احتفال بمناسبة الذكرى الثمانين لوثيقة كيلوغ - بريان التي تحرم الحرب العدوانية، كيف لا ونحن ضحايا حرب عدوانية مستمرة تشنها علينا إسرائيل ومَنْ وراءها، وشاهدنا الأكبر هذه الأيام، العراق وفلسطين.

كذلك يصادف عام /٢٠٠٨/ الذكرى الـ /٦٠/ لصدور الإعلان العالمي لحقوق الإنسان. سورية كانت من الدول المؤيدة له في ١٠/ ١٢/ ١٩٤٨. وفي دستورها الدائم الصادر عام ١٩٧٣ /٢٥/ مادة يضمها الفصل الرابع من الباب الأول من الدستور وعنوانه (الحريات والحقوق والواجبات العامة). هذه المواد أشبه ما تكون بإعلان لحقوق الإنسان. ثم إن سورية صادقت على الميثاق العربي لحقوق الإنسان أواخر عام /٢٠٠٦/ وقد دخل هذا الميثاق حيز النفاذ في ١٥/ ٣/ ٢٠٠٨.

- طالما أن هناك ميثاق موقع لضمان حقوق الإنسان فلماذا لا تهتم الاحتفالية بالذكرى الـ /٦٠/ للإعلان العالمي والشرعية الدولية لحقوق الإنسان؟ هذا من جهة ومن جهة أخرى هل هناك حقاً شرعة دولية لحقوق الإنسان في ظل الاعتداءات المتكررة؟ وإن وجدت فما تعريفها؟

** هي تعبير اصطلاحي ضم تقليديا ثلاث وثائق. الأولى هي الإعلان العالمي الذي تحدثت عنه قبل قليل. الوثيقتان الثانية والثالثة هما العهد الدولي للحقوق الاقتصادية والثقافية والاجتماعية، والعهد الدولي للحقوق المدنية والسياسية. هذان العهدان ملزمان واجبا التنفيذ منذ دخلا ذلك الحيز عام ١٩٧٦. المادة الأولى في العهدين واحدة، كأنها تتحدث عن الحقوق الفلسطينية. تنص المادة الأولى من العهدين على حق كل شعب في تقرير مصيره بنفسه وعلى أرضه. ما أحرانا أن ندعو إلى مؤتمر دولي للنظر في كيفية تطبيق هذه المادة الأولى الملزمة في العهدين الدوليين الملزمين. كان هذا ما فكرت فيه حين كتبت مذكرتي عن الاحتفالية في ١٦/ ٩/ ٢٠٠٨.

أما الآن فأضيف: أتانا هولوكوست غزة. ينضم بند العدوان الهولوكوستي الذي أوقعه الإسرائيليون بغزة إلى أعمال المؤتمر الدولي بمناسبة الذكرى الستين للإعلان العالمي. كذلك ينضم إلى أعماله احتفال خاص بحلف الفضول بعد أن أصبح واجباً علينا أن ننظم ذلك الاحتفال.

- لماذا أصبح واجباً علينا أن ننظم احتفالاً خاصاً بحلف الفضول؟

** لأن الأمم المتحدة وبمناسبة الذكرى الـ /٦٠/ للإعلان، أشارت لأول مرة إلى حلف الفضول في تأريخها لحقوق الإنسان وأوصت بالاهتمام به. أليس أهل البيت بالاحتفال بصناعتهم أحرى؟ أليس حلف الفضول صناعة بني قومي العرب؟

- للشامة دمشق، ماذا تقول بمناسبة احتفاليتها؟

** لا ريب أنني فرح بالاحتفالية وما أثارته من حركة ثقافية ومن تجاوب أشعر به في محيطي الشخصي. ودمشق تستحق كل ذلك وأكثر. ألم يخصها الرسول العربي الكريم بالعديد من أحاديثه النبوية الشريفة؟




دمشق عاصمة الحب..

شعر الدكتورة: طلعت الرفاعي

لا تَعجـــبي إن كـــان حُبــكِ قـــاتلي
والبحـــر تعـــرف مـــدّه الـــشطآن
حُـــبٌ تعتّـــقَ في هـــواكِ وجيبـــهُ
في القلـــب ســـيمفونيّةٌ ودِنـــان
إن بـــدّلتْ كـــل الوجـــوه قناعَهـــا
في الـــشام لا تتبـــدل الألـــوان
لا (اللاذقيـــة) بـــدلت مـــن وجههـــا
يومـــاً ولا (حلـــبٌ) ولا (بْلـــودان)
والجـــامعُ الأمـــويّ لم يـــبرحْ بـــه
(عبـــد العزيـــز) ولم يـــزل (مـــروان)
و(زنوبيـــا) في تـــدمرٍ لمّـــا تـــزلْ
شـــهبٌ ترصّـــعُ تاجَهـــا وجُمـــان
مـــازال يَـــسكبُ (قاســـيون) رَحيقـــهُ
والبـــدرُ فـــوقَ ذِراعـــه ســـهران
عِطـــر الجبـــال تميمـــةٌ في مـــوطني
تـــشفى بـــه الأوجـــاع والأدران
لم يـــدرِ عقـــدُ اليـــاسمين بليلـــهِ
أن النجـــومَ بخيطـــه تـــزدان






نبـــع الحيـــاة كمـــا عهدتِـــهِ ســـاحرٌ
والغوطـــــةُ الغنّـــــاء والعقيـــــانُ
والهامـــةُ الوطفـــاء مـــا بِـــرح الهـــوى
حُـــسناً يوقّعُـــــهُ بهـــا هيمـــــان
عِـــشقُ الجمـــال ضـــريبةٌ في مـــوطني
لم يـــنجُ منـــهُ خـــافقٌ فنّـــان
وهـــوى الكمـــال عبـــادةٌ بخلـــوده
يحيـــا الـــسلام ويـــشمخ العمـــران

* * *

صـــوت العروبـــة مـــن دمـــشق نـــشيده
يعلـــو فـــساح الهـــائمين جنـــانُ
لـــولا دمـــشقُ لمـــا سمـــا صـــرحٌ علـــى
جـــسر الفـــداء ولا زهـــت أركـــان
ودمـــشق ملحمـــةُ (الحجـــارة) لم تـــزل
فـــوق الـــسُهى يـــشدو بهـــا (نيـــسان)
والـــشام قـــد محـــت الخـــرائط كلـــها
بيـــد الهـــوى وتوحّـــد المَيـــدان
والـــشام مـــن أقـــصى الخلـــيج بأرضـــها
للأطلـــــسيِّ يقـــــاومُ الـــــشريّانُ
الوحـــدةُ الكـــبرى رســـالة أمّـــةٍ
غَمـــر الـــدنى منهـــا الـــسنا الفيـــضان
مهمـــا الخـــرائط تختلـــفْ ألوانُهـــا
في الـــشمسِ لا تتعـــدّد الأوطـــانُ!




دمشق

عاصمة الثقافة العربيّة

لعام ٢٠٠٨

بقلم الدكتورة:

مها فائق العطار

دمشق ما أحلى هذه الكلمة بمعناها ومبناها!! دمشق الدماثة والرقّة والتضحية المباركة والقدسية ما أبعد معناها!! دمشق بمآذنها ومساجدها ومدارسها وحاراتها وزواريبها ومياهها بأنهارها وسواقيها!! دمشق ببنائها وحبّهم وعطائهم وتكاتفهم.. كلّ ذلك يؤلّف تاريخاً عريضاً باهراً له جذورٌ عميقةٌ في حياة الفرد!!

وتعاودني الذكرى حين زرت قصر الحمراء في الأندلس.. ولم أنس ذاك السائح الأمريكيّ المتعجرف الذي لم يحيّينا طوال رحلتنا أنا وزوجي وكان معنا في مجموعةٍ سياحيّةٍ انطلقت بنا من مدريد إلى الأندلس مع أنّه تعرّف إلينا منذ بداية الرحلة وحين زرنا غرناطة انبرى قائلاً: إنّني أنحني احتراماً لكما ولتاريخ بلادكما الذي ما زال مشرقاً إلى اليوم!! فهل دمشق عاصمة الأمويين التي انطلق منها هؤلاء الذين نقلوا آثارهم إلى بلاد الأندلس مشرقةً كما أراها هنا؟!! إنّني أودّ

زيارة دمشق لأتعرّف إلى تلك الحضارة الراقية منذ آلاف السنين وما تزال!!

بكيت آنئذٍ ومسحت عبراتي حتّى لا يراها ذاك السائح المتعجرف الذي اعترف رغم كلّ شيءٍ بتاريخ بلادي وحضارتها ورقيّها!! ولعلّه عاد إلى التاريخ ليعرف ماذا قدّمت دمشق في تلك العصور إلى أوربا التي كانت تغرق في بحر الظلمات!! وتذكّرت أبياتاً قالها نزار قباني رحمه الله حين زار الأندلس تلك الأبيات التي تحكي تاريخ دمشق في عصورها الزاهية!!

ما أغربَ التاريخَ كيف أعادني
لحفيدةٍ سمراءَ من أحفادي
وجهٌ دمشقيٌّ.. رأيتُ خلالهُ
أجفانَ بلقيسٍ، وجيدَ سُعادِ
ورأيتُ منزلنا القديمَ.. وحجرةً
كانت بها أمّي تُمدُّ وسادي
والياسمينةَ، رُصِّعتْ بنجومها
والبركةَ الذهبيَّةَ الإنشاد
ودمشق أين تكون؟ قلت ترَيْنَها
في شعرِكِ المنسابِ نهرَ سواد
في وجهك العربيِّ، في الثغرِ الذي
مازال مختزناً شموس بلادي
في طيبِ (جنّاتِ العريفِ) ومائها
في الفُلِّ، في الريحان، في الكبّاد

لقد ذكّرني نزار بزيارتي الثانية للأندلس وكم بكيت هناك متذكّرة دمشق وبهاءها ورونقها عاصمة أجدادي وأحبّتي.. تذكّرت زواريب دمشق وحاراتها التي لم تعد كما كانت من قبل!! وكأن دمشق انتقلت إلى هناك لتعيد تاريخها وكأن سكّانها قد انتقلوا إلى غرناطة وإشبيليّة وقرطبة بوجوههم المشرقة وبسماتهم وترحيبهم بالضيف.. تلك العيون التي طالعتني في كلّ مكان زرته هناك!! لقد رأيت أمّي وأخوتي وبناتي وأبي وإخوتي وأولادي في وجوه الأندلسيّات والأندلسيّين!!

فهل هذا تقمصٌ أم خيالٌ!!؟




لماذا..؟!

شعر: دولة العباس

لمـــاذا أنـــتِ وحـــدكِ يـــا دمـــشقُ
حـــنينٌ في دم الثـــوار.. عـــشقُ
لمـــاذا أنـــتِ وحـــدكِ للتـــصدي
وللتحريـــــر عاصـــفةٌ.. وبـــرقُ
وكنـــتِ لغـــابر الـــصحراء.. مجـــداً
عريقـــاً.. مـــذ خلقـــتِ وكـــان شـــرقُ
تجـــاوز كبريـــاؤكِ كـــلّ دهـــرٍ
فلـــيس هنـــاك أنـــدادٌ وســـبقُ
وأنـــتِ اليـــوم كـــالأمس المنـــدى
أغاريـــدٌ.. وأصـــداءٌ وعمـــقُ..
دمٌ متـــوهّجٌ.. ولهيـــب نـــارٍ
وإعـــصارٌ علـــى الأعـــداء دفـــقُ

* * *

وبـــين ذويـــكِ مـــن صـــدقوا ووفّـــوا
عهـــودَهُمُ.. ومـــنْ غـــدروا وعقّـــوا..
سَـــيُهزَمُ كـــلُّ طاغيـــة وتحـــدو
حُـــداةُ المجـــد باسمـــكِ يـــا دمـــشقُ

* * *

ســـيُهزَمُ كـــلُّ طاغيـــة ويبقـــى
زئـــيرُ الأُسْـــدِ صـــوتَكِ يـــا دمـــشقُ




بوهج الدمشقة

يعيشون في دمشق

وصاروا مواطنيها

بقلم:

عادل أبو شنب

-١-

يطيب العيش ويحلو في دمشق، أقدم مدينة مأهولة في العالم، لذلك ما إن يحل غريب فيها حتى يتمنى الإقامة فيها، وقد تطول إقامته، لما يجده من أهلها من ترحابٍ بِه، وحدب عليه، والقصص التي سميت بأسماء المهاجرين إليها كثيرة، كانت كل جماعة تجد في بلادها جوراً أو عدم إنصاف أو احتلال بغيض، تنتقل إلى دمشق... لتجد مقاماً طيباً وسكاناً متسامحين وأخوة في الدين، يساعدون اللاجئ إليهم، ويعطونه بدون منّة أو تذمّر.

وفي أسفل قاسيون يعيش مهاجرون وفدوا إلى دمشق، فسميت المنطقة كلها باسمهم (المهاجرين)، وفي أكثر من مكان في دمشق تجد تكتلات عرقية استوطنت المدينة لسهولة العيش فيها، ولاستقبال أهلها لهم استقبالا يليق بهم، وهؤلاء الأشقاء الأرمن قد نزحوا إلى دمشق، وصاروا مواطنين صالحين، وأولئك الأرناؤوط الذين تجمعوا أول الأمر في مكان واحد هو الجهة الشمالية لشارع بغداد. وكثيرون أمثالهم!

-٢-

كنت صغيراً عندما كان أهل دمشق يشترون الحطب جذوعاً، لتقطيعه وإدخاله إلى المدافئ للتدفئة، إذ لم يكن المازوت قد انتشر بعد، وكذلك لم تعرف دمشق (الشوفاج) الذي صار في كل بيت من بيوت أهل اليسار، وكان يمر أمام أعيننا ونحن نلعب في الحارة عدة رجال يحملون على أكتافهم فؤوساً، ومهمتهم تقطيع جذوع الأشجار المشتراة التي تعود لأحد مشتريها. كان هؤلاء من الأرناؤوط الذين جاؤوا دمشق لاضطهادهم في بيئتهم الأصيلة. وقد عرفت عندما كبرت أن هؤلاء هاجروا إلى دمشق حماية لهم من بطش مخالفيهم في العقيدة، فوجدوا في دمشق ترحيباً كبيراً، وقد هيأت لهم هذه المدينة سبل العمر الحر النظيف. وإن أنس لا أنس الشيخ الأفغاني الجليل الذي كان يحمل على ظهره دولاباً كبيراً وينادي: مجلخ... مجلخ... كانت النسوة تقدم له سكاكينها ليشحذ شفراتها، وبعدها لتكون صالحة للاستعمال. هذا الشيخ العجوز هو المجلخ الذي جاء من بلاده الإسلامية البعيدة (أفغانستان) ملتجئاً إلى دمشق ليضمن ألا يؤذيه أحد في دينه فقدر ماذا كانت دمشق تعني له حتى تحمل شظف العيش للإقامة فيها.

ومثل الأفغانيين جماعة الأرمن التي التجأت إلى سورية، ودمشق بخاصة، بعد اضطهادهم في بلادهم، فرحبت بهم دمشق وآوتهم وأطعمتهم، وصاروا جالية محبة، تتمتع أهلها بما يتمتع بها الدمشقيون، ولن أنسى أن الأرمن هم الذين حملوا إليها فن التصوير، فكانوا يصورون الأشخاص بعلبة خشبية كانت دارجة في أول مراحل التصوير.

-٣-

إن الحديث الذي يطول عن الجاليات التي جاءت دمشق... لتعبر عن رقة أهل هذه المدينة، وحبها للغريب حتى يصير قريباً، بل يصير واحداً من أبناء البلد. وهذه الناحية جديرة بالاهتمام في احتفالية دمشق بكونها عاصمة للثقافة العربية، لأن فوق أرضها تجتمع ثقافات وأثنيات وجماعات. صحيح أنها ذابت في أتون المجتمع الدمشقي إلاّ أنها حافظت على موروثها الثقافي وخصائصها العرقية إن هذه لجديرة بأن تؤلف الكتب وإلقاء أضواء عليها.




أحنّ من الحجاز إلى الشام!!

شعر: محمد كامل الخجا - السعودية

أحنّ من (الشآم) منىً بروحي ... وشمس (الشام) تضوي في خيالي
أحن من (الحجاز) إليك لهفَ ... لهاف فطيم للثدي الرئال..
أعانق فيكِ افراحاً طواها ... عذابٌ فاق أحمال الجبال
فكم كابدتُ من نصب ولغب ... ومن أوصابِ أيامٍ علالِ
فألهج حامداً لله رزئي.. ... وأصبر صبر ذي العزم المثالي
ورثت الهدي عن جدي اقتداءاً ... به نعم (الرسول) ولا أغالي
سخايا (طيبة) دنياي فيها ... نعمت بنفحها فسرى سجالي
وفي (طهر القداسة) ذابٍ عمري ... فأكرمني إلهي.. بالمعالي
ولولا كنتُ ممتداً بجذر ... إليها بالسعادة في وصالي
لكنتُ مضمخاً بأريج (شكريٍ) ... و (مأمون) و (حافظ) والأثالي
بطولات أعيش بها مهنى ... هناءَ (ابن الوليد) و (ذي الحبال)
مع الصحب الكرام رفاق (طه) ... بميس تَرنح بنداً (بلال)
ملبين النداء إلى صلاةٍ ... وجمع المسلمين على الحبالِ
حبالِ الاعتصام لهم نجاة ... من الدنيا وأدواءٍ عضالِ
يئن بها الخلائق في ضياع ... وغم مضجر مرخى السدال
فكل غارق في لج بحرٍ ... من الظلمات يجهد في انسلال
هدى (الرحمن) (بالقرآن) نورٌ ... آساد خلاصَهم من سوء حالي
وهدي (محمد) أسمى المراميٍ ... به بتوا لهم حق الفصال
فنالوا من (إله الكون) أجراً ... رضاء (الله) ربي (ذي الجلال)
وجنات النعيم لهم مقاما ... بلا لغطٍ ولا لجج الجدال!!
أحن إلى (الشآم) بملء قلبي ... وعطرُ سريرتي سهرُ الليالي
أنبضرها بأندى من دمائي ... بفكرٍ ملهم النظرات جالي
بما تحوي الخواطرُ من معين ... لبرء الخلق من رجس الفعال
بما أنزله ربي من خلاص ... على (خير الورى) عبر الأزال
سقاءاً أرتشفه لري روحي ... صدى يرتاح من نعماهُ بالي
هداية سنة (لله) فينا ... وسنته البدال من المحال!!!

* * *




أحنُّ إلى (الشآم) بملء قلب ... ملح في الشهود وفي الرحال
وتلتهب المشاعر في فؤادي ... كأن أوارها لذع الرمال
مكثت (بسوريا) أحلى حياةٍ ... سقاها (الله) آسادُ الرجال
دماءاً نازحاتٍ من قلوبٍ ... (لرسل الله) غرساً للكمالِ
إذا غابت عيوني عن سناها ... تغذى العقل منها بالجمال
با بصري اصرفه زماناً ... أقلبه على غالي المنال
من الأمجادِ تاريخاً عريقاً ... يضيء نهارهُ سودَ الليالي
فتحت قماقماً صفاحات خلدٍ ... وقد حويت سطوراً من جلال
سطور خلودها صيغت مداداً ... بإبريز موشّى بالغوالي
يباهي الخالدين بها خلودٌ ... فذكرُ خلودِها أحلى ابتهال
ترنمه القوافل فيالروابي ... وتحدوه الغواني في دلال
فتبر ترابها ذرات عز ... له ينداح أكداسُ اللآلي
رسالات السماء بها تسامتٍ ... على مر العصور وفي وصال
تشع قداسة فتنير درباً ... بهدي (الله) ماحية الضلال
فتقرع للور ناقوس بشر ... وتجرس للورى نذر المآل!!

* * *

(عرين الأسد) يأرز كل حين ... إليك المؤمنون بلا محال
يكبر عند بابك كل ركب ... متى سعدوا بهالات الظلال
ظلال الحق يزهو في حماها ... ضعيف المنتخى وسني بال
بها (بشار) شبل الأسد بشرى ... رفيق الدرب في قبس اشتعال
(عرين الأسد) يأرز كل حين ... إليها المؤمنون بلا محال
يغذيها (الإله) بكل حسنى ... تجسدها بأقوال فعال!!
بها نصر الأباة لكل حرٍ ... إليها تشرئب لها المعالي
جبين الحر لا يوهيه قيدٌ ... لسلطانٍ ولا ذل لوالي
بنصر (الله) منتصراً سيحيا ... بفضلِ (الله) في عز الجلال
عتيقٍ الروح من ربقِ وبغي ... وصقرا في الفضاء بلا عقال
يحطمِ للطغاةِ صليفَ قهرٍ ... بكسرٍ للمخالب بالنصال
كريماً ثابت القدمين رسخاً ... يصاولُ في الحياة بلا كلال!!

* * *







جنـان (الشام) تكسرها القوافي — بأندى المجد زاخرة السلال
تتيه الخلق في وله فريدٍ — تشدهم إليها في ارتحال
بوهج للحضارة في عطاءٍ — بعصفٍ للخطى وبلا ملال
فأهل (الشام) خير الناس طراً — إذا ذكروا فهم خيرُ الأهالي
لأمة (أحمدٍ) وسموا رموزاً — كريمُ خصالهم أزكى الخصال!!
ومهد (العرب والإسلام) جمعا — تشاطرني الشعور صدى لحالي
فحب (الشام) مغروس بعمق — بأفئدة الدنى رحب المجال
وشمس (الشام) مهما طال دهر — سيبزغ فجرها بذرى الأعالي
فأنت يا (شآم) لكل جيل — مقدسة المعالم والخصال
جنان (الشام) تكسرها القوافي — بأندى المجد... زاخرة السلالِ
أيا (سورية) الأحرار دوما — أفيضي من عطائك للأعالي
مغانيها (دمشق) و (غوطتاها) — بأشذاء تضوع في التلال
يد (الخلاق) صاغ بها رباها — لوائح أبدعتها... باكتمال
جنان (الله) أرساها كآي — بذي الدنيا بلا قيل وقال
يغذيها (الإله) بكل حسنى — تجسدها بأقوال فعال
ومشكاة الزمانِ تضيء نوراً — يذيب حوالك الدنيا دوالي!!

* * *

ألا يا (شام) دمت لنا بهاءً — ستبقين المنارة للأعالي
فأنت النور في عين البرايا — على ما فيك من شهد الزلال
سريرتك الضياء بلا غروبٍ — وعيناك الغيوب بلا جفال
يد (العربي) في عنق الثريا — أليفُ حياته عشق الكمال
فكم علمت جيلاً إثر جيل — عراك الموت في هذا المجال
دفنت الموت حتى مات فيهم — زرعت على الذرى بذر النضال
وكم صدرت للدنيا كماة — من العرب القداح لهم علالي!!

* * *

ألا يا (شام) زخ صدى روحي — على نعماك في ألق سجالي
فأكرم شعبك الميمون نهجي.. — برجع صدى قلائدٍ من فعال!!
ألا يا (شام) زخ صدي روحي — على نُعماك نصراً.. للمعالي!
حماك الله.. حصناً للبرايا — ديار النور.. يا نبع الكمال!!




دمشق.. مدينةٌ هزَمتِ الموت ولكن..

بقلم:
شوقي بغدادي

ما أزال وقد تقدّم بي العمر يستهويني التجوال في دمشق القديمة، أقف على حجارة ضخمة منحوتة تشكل أساساً في جدار مبنيّ من حجارة أخرى أصغر، فاسأل نفسي: ماذا كان يوجد في هذا المكان المحاط بمثل هذا الحائط المؤسّس على هذه القطع الضخمة من الحجارة؟ وكيف يتداخل التاريخ القديم بما بعده من تواريخ؟ ومن أين يبدأ الزمن وإلى أين يفضي في هذه المدينة العريقة؟

وقد أتوقف مليّاً أمام بوّابة خان فسيح رُمِّم حديثاً فأجد أن البوّابة المفتوحة قد انغرس مصراعاها السميكان المسلحانِ بالمسامير الغليظة في الأرض، أو أن واحداً منهما قد اختفى، فأتساءل: أين ذهب هذا المصراع الذي تكاد الشاحنات الضخمة الحديثة تعجز عن حمله؟ ليس معقولاً أنه احترق مثلاً وسلِمَ الآخر وهما متلاصقان؟ هل سرقه اللصوص؟ ولكن كيف نقلوه؟

أدخل بعدها إلى ساحة الخان... هنا كانوا يربطون الدواب، وفي هذه الغرف والممرات كان يحتشد المسافرون من باعة وتجار وتجري الصفقات بينهم.. وهذا الدرج الحجري الصامد يقود إلى الطابق الأعلى حيث كان المسافرون ينامون.. ولكن كيف كان في استطاعتهم أن يأمنوا على أنفسهم ليلاً؟! لا بدّ أن نظاماً من الأمن كان يحميهم ولهذا كانت الخانات كثيرة وواسعة، فكيف فقدت هذه الأمكنة حياتها وبقيت الحجارة شاهداً حيّاً تحوّل إلى مستودعات مبتذلة لتجارة تغصّ بالنفايات؟!

أتابع طريقي فأصل إلى البيمارستانات التي تحوّلت إلى ملاجئ للنازحين، وأعرّج على المدارس التي خلت من طلاّب العلم كي يتقاسم النازحون الفقراء غرفها، ولم يبق من هذه المدارس على حاله سوى ركن المسجد الصغير

في صدر (البادرائيّة) المخرّبة، وقد ألج حمّام السوق كي أغتسل طارداً من ذهني كل الزينات الجديدة المضافة لإغراء السائح الأجنبي مستعيداً التقاليد العريقة من (البرّاني) إلى (الوسطاني) إلى (الجوّاني) حيث أستسلم للمكيّس ولكنني لا أجد الجوّ الذي قرأت عنه فأسارع بالخروج آسفاً...

أصل أخيراً إلى المسجد الأموي، وقد ارتفعت الشمس ونشطت حركة البشر، فأقف طويلاً أمام جدران السور متأمّلاً الفارق الكبير في اللون والحجم والأسلوب بين حجارته القديمة والأخرى الجديدة التي يرمّمون بها السور المتآكل متذكراً الحرائق التي شبّت فيه أكثر من مرّة، وأن هذا اللون القاتم في حجارة السور القديمة ليست إلاّ من دخان تلك الحرائق ونارها.

أدخل إلى الساحة الفسيحة بعد أن أخلع حذائي وألجأ إلى ركن ظليل أتأمّل منه هذه الساحة التي لم يتورّع الغزاة عن تلويثها بحوافر جيادهم وإبلهم كما تروي الكتب... أنهض بعد قليل فأدخل إلى المصلّى فيأخذني خشوع المكان الرحب فأفترش الأرض مسنداً ظهري إلى الجدار وأهيم بخيالي في سراديب الوجود الربّاني ودهاليزه وسماواته.. أنهض مرّة أخرى، فأصلّي ركعتين أطيل التهجّد فيهما، ثم أخرج من جديد إلى العراء، فأتجه إلى مقهى (النوفرة) كي أستريح على كرسيّ عتيق، فأشرب فنجاناً من القهوة ثم أعود أدراجي إلى داري في الأحياء الحديثة وقد امتلأت بالذكريات حتى الحافة.

في كل ركن، وكل زاوية، وفي كل زقاق، وعند كل منعطف أثر عميق من المعاناة القاسية المديدة التي امتُحنَتْ بها دمشق، ثم تحملّتها وتجاوزتها وأعادَت بناء ما تخرَّب منها وعاشت حتى وصل بها المطاف إلينا، فماذا صنعنا بها؟

حين تراجع الكتب التي تروي تاريخ البلد تأخذك الدهشة الكبرى أن كيف استطاعت هذه المدينة البقاء على قيد الحياة؟ في حين أن بعضاً من الأهوال التي نزلت بها كانت كافية لإبادة مدن أخرى عريقة في التاريخ لم يعد لها وجود حيٍّ على أرض البشر، فأين ذهبت إيبلا مثلاً وبابل ونينوى وعمريت وأفاميا وغيرها.. وغيرها..؟ ماذا تبقى منها سوى أنقاضٍ من أطلال غمرها الشوك والعشب والخواء..؟

كيف إذن بقيت دمشق وهي من عمر تلك المدن أو أقدم منها؟ فمنذ آلاف السنين تُذكرُ الكتب القديمة أن مدينةً كانت في هذا المكان استمرت، وكبرت، وتضخّمت حتى غدت من أكبر المدن العربية! فما هو تفسير لغز هذه المدينة الأسطورة بعد الحرائق والزلازل، والأوبئة، وطغيان الغزاة الذين لم يرحموها أبداً.. كيف كانت تقاوم الموت، وتستمر الحياة وتعيد بناء نفسها كي تبقى لنا حتى اليوم.. ومن أين نبدأ بسرد بعضٍ من تاريخها الرهيب؟

تاريخ دمشق الدامي

إذا تركنا جانباً الفترة الأكثر قدماً وقصرنا الحديث على العهد الإسلامي إلى ما بعده اختصاراً للحديث، أصابنا الذهول حيال ما صنعه العباسيون بإخوتهم الأمويين حين أباح الفاتح العباسي (عبد الله بن علي) المدينة لعسكره أياماً ثلاثة صنعوا فيها الأعاجيب من النهب والقتل والتخريب إذ نقضوا مثلاً سور دمشق حجراً حجراً وتحوّل الجامع الأموي إلى إسطبل لدوابهم وجمالهم سبعين يوماً، لم تعرف بعدها دمشق السكينة إلاّ لآماد قصيرة تنشبت بعدها ثورات شعبية ضد الولاة العباسيين وفتنٍ

عديدة متلاحقة مروراً بالدولة الطولونية (٢٤٢ - ٢٩٢هـ) فالإخشيدية إلى القرامطة إلى الدولة الفاطمية عام ٣٦٣هـ، وما جرى إبّانها من صراعات بين عامّة أهل المدينة وحكّامها الجدد، وما صنعه هؤلاء من تخريب انتقاماً، حتى لقد هرب معظم سكانها إلى حمص والقرى النائية، ولم تهدأ الأحوال بعدها إلاّ لفترات محدودة زمن الدولة الأيوبية إلى أن ظهرت جماعة من المرتزقة عُرفوا بالخوارزمية حاصروا دمشق خمسة أشهر وهلك العوام جوعاً فأكلوا جثث الموتى، غير أن جميع هذه النائبات تبدو صغيرة بالقياس لإعصار (هولاكو) عام ٦٥٧هـ، الذي لم يرحم البلد بالرغم من مداراة كبراء المدينة له اتقاء لشره المستطير فدمّر القلعة التي استعصت عليه وحدها وأحرق الأحياء القريبة منها.

وفي زمن المماليك تتابعت حلقات العنف إلى أن وصل البلاء الأعظم على يد تيمورلنك المغولي الذي كتب المؤرخون في وصف فظائعه المجلدات نقتطف منها بعضاً مما ورد في كتاب (خطط الشام) للباحث الكبير محمد كرد علي في الصفحات (١٧١ - ١٧٢ - ١٧٣) من الجزء الثاني حيث يقول:

"وحينئذ حلّ بأهل دمشق من البلاء ما لا يوصف، وجرى عليهم من أنواع العذاب وهتك الأعراض أشياء تقشعرّ منها الجلود، فهلك خلْق لا يُعلم عددهم.. وعمّت الحرائق جميع البلد ثلاثة أيام بلياليها ثم رحل تيمورلنك عنها بعد أن أقام ثمانين يوماً، وقد احترقت المدينة بأكملها وسقطت سقوف جامع بني أمية وصارت دور دمشق وقياسرها وحماماتها أطلالاً بالية ورسوماً خالية ولم يبق فيها إلاّ الأطفال..".

استعادت دمشق بعد عشر سنوات من الكفاح بعضاً من حيويتها وقد عاد سكانها الناجون إليها ورمّموا عمرانها المخرّب ولكن العربان لم يرحموها فهاجموها بدورهم ونهبوا وخرّبوا، وحدثت فتنة كبرى في (الشاغور) حُرق فيها المحلّة وقُتل أناس كثيرون وحَكم الغوغاء - أو الزعران كما كان يُقال - عام ٩١٠هـ لفترات قصيرة عمّت فيها غلفوضى والاضطرابات والخوف.

ونجت دمشق من الصليبيين إذ عجزوا عن اقتحام أسوارها فعاثوا فساداً في القرى المحيطة بها، وظلّت دمشق تعاني ما تعاني إلى أن جاء العثمانيون الذين استقبلوا أوّل الأمر بالتهليل والتكبير كأصدقاء مُخلّصين من حكم المماليك، فساد الأمن وهدأت الخواطر فترةً من الوقت عادت الفتنة بعدها تنشب أنيابها حين شقّ بعض الولاة عصا الطاعة على السلطان العثماني مما جرّ على المدينة من الويلات ما يذكر بغزوة تيمورلنك إذ خرب نحو ثلثي قرى الغوطة وحارات وأسواق وبيوت المدينة، وظلّت الحال على هذا السوء إلى أن جاءت العصور الحديثة بالغزو الأوروبي الذي حفلت أيامه بالثورات ضد المحتلين الفرنسيين والتي بلغ فيها الظلم الوحشي ذروته عام ١٩٢٥م، حيث تعرّضت دمشق للقصف المدفعي ثلاثة أيام بلياليها، فاحترق قسم كبير منها وما يزال الحيّ الذي ابتلي أكثر من غيره بهذه النكبة يُسمّى حيّ الحريقة.

الطبيعة أيضاً

لم تنج دمشق أيضاً من قسوة الطبيعة، من زلازل وحرائق وأوبئة، انخفض عدد السكان بسببها كثيراً وخاصة بسبب وباء الطاعون الذي هاجم البلد مرّات متعدّدة، وفي الأعوام الممتدة بين ٧١٧هـ إلى عام ٨١٤هـ وكان أقساها. أما الزلازل فلقد كان لدمشق

منها نصيب كبير في عامين متتاليين ٧٤٨ و ٧٤٩هـ. دُمّر فيها معظم المدن والقرى السورية وخاصة دمشق حتى قدّر أن عدد سكان سوريا بأكملها انخفض إلى مليون ومئتي ألف ولم يتبق منهم لدمشق سوى عشرين ألف نسمة.

أخطار أخرى حديثة

صحيح أن عهود الاستقلال لم تعرف ويلات من التخريب البشري البربري كما في حصل في الماضي إلاّ أن أخطاراً جديدة وغير مسبوقة بدأت بالظهور والتأثير المدمّر في البلاد عامّة ودمشق على الأخص لأسباب يعود بعضها إلى تغيّرات مناخية شملت الكوكب كله إذ زادت نسبة التصحّر والتلوّث والجفاف في معظم أرض البشر.. غير أننا بدورنا زدنا عليها أخطاءنا في أمور التنمية الزراعية خاصة حين تزايدت عمليات الحفر للآبار الاصطناعية مما أدّى على استنزاف الحوض المائي للبلد، كما أدّى التكاثر الديموغرافي السرطاني إلى تضخمٍ مريع في سنوات قليلة نسبياً إذ زاد عدد سكان دمشق أضعافاً مضاعفة في حدود خمسين عاماً فقط (من اقلّ من مليون إلى ما يقارب السبعة ملايين) فتزايدت الحاجة إلى ماء الخدمات المنزلية والشرب والسقيا، ولم يعرف المزارعون بعد استخدام الماء بشكل اقتصادي (كاستخدام أسلوب الرش والتقطير) وقد تبدّى أثر هذه التحوّلات - وغيرها كثير - في جفاف مجرى النهر وتحوّل بردى إلى ساقية ضئيلة في الشتاء وبلاط حجري جافّ في الصيف، وصارت الغوطة تعاني من العطش أو من السقيا بالماء الملوّث بعد أن عجزت محطة (عدرا) للتنقية عن استيعاب التلوّث الكبير لمدينة تتضخم باستمرار.

هذه الأخطار المستحدثة والمتفاقمة تجعل من مسألة استمرار الحياة في دمشق ظاهرةً ملتبسةً ومشكوكاً في إمكان السيطرة عليها.

إنها أخطار تختلف بالتأكيد عن أخطار الغزوات الهمجية لبرابرة الماضي البعيد، ولكنها أخطار جدّية قد تفوق آثارها السلبية ما حدث في الأمس إذ كانت دمشق فيما مضى من أهوال نزلت بها قادرةً باستمرار على تحدّي الموت وإعادة بناء ما تخرّب من صورتها الجميلة بفضل توفّر المياه وما ينجم عن ذلك من خصوبة في الأرض كانت تجعل من الغوطة كنزاً وفيراً يمدّ المدينة المنكوبة بالثروات الزراعية القادرة وحدها على إعادة بناء البلد المخرّب، والآن وقد ازداد الجفاف، وبالتالي قلّ الماء أو تلوّث وتصحّرت الغوطة أو فسدت أرضها، فمن أين لدمشق أن تسدّ الحاجة المتزايدة للشرب والغسل والسقيا بماء نظيف؟

إنها أخطار أخرى غير مسبوقة تواجهها دمشق ولا يبدو في الأفق القريب أن هناك خطة علمية ناجعة بحق تُنفَّذ وسائلها وأجهزتها على الأرض لتبقي دمشق على صيتها التاريخي الشهير كواحة خالدة أو جنّة وارفة بالخضرة والماء النقي.

إن إنقاذ دمشق بات واجباً أخلاقياً وليس وطنياً أو حضارياً فحسب، وهو ممكن مع الإرادة الواعية حقاً بطبيعة ما يحدث في البلد وفي العالم كلّه، وكيف يتمّ عملياً - وليس كلامياً أو عاطفياً - تفادي هذه الأخطار الجديدة وإلاّ فلن تبقى دمشق هي دمشق التي عرفها جيلنا وأجيال أسلافنا بالتأكيد.



يا شامْ..

شعر: وداد طويل عبد النور

يــا شــامُ يــا شَــمْسَ الــدُنا
بَلَــدَ النَّــدى والعُنْفُــوانْ
مَــنْ لــي سِــواكِ علــى الــضَّنَى؟
يــا شــامُ إِنْ غَــدَرَ الزَّمــانْ؟
أَدْمَنْــتُ حُبَّــكِ مُــذْ شَــدَتْ
للحُــبِّ أَوْتــارُ الكمــانْ..
بَــلْ مُنْــذُ أَنْ ســاقى الهَــوى
مُهَــجَ القَــصائدِ والبيــانْ

* * *

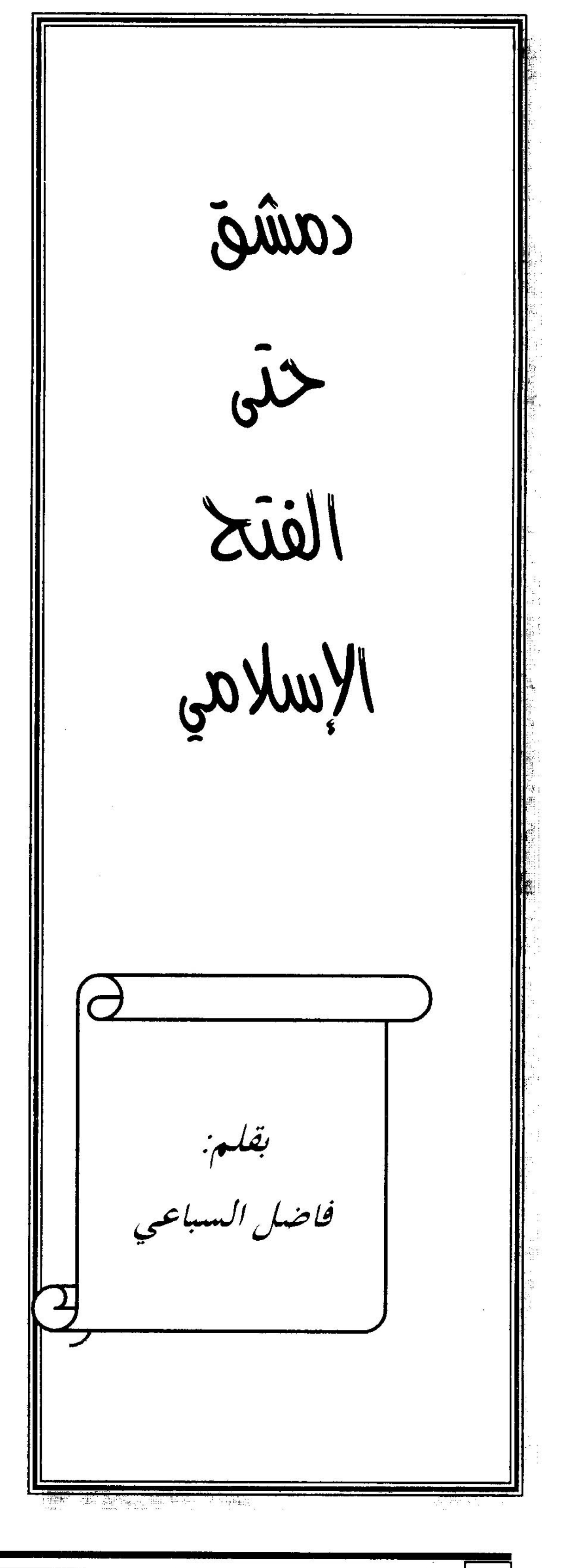
يــا شــامُ كَــمْ مَــنْ طــامِعٍ
وبحِمــاكِ قَــدْ ذاقَ الهــوانْ..






في كُـــلِّ سَـبِـاحٍ مَوْقِـــفٌ
للعِـــزِّ والمجـــدِ المُـــصانْ
وعلـــى البطـــاحِ ملاحِـــمٌ
لِنِـــضالِ شـــعبٍ مـــا اســـتكانْ
هيَّـــا نُتـــوِّجُ رأْسَـــها
بالغاليـــاتِ مـــن الجُمـــانْ
هَيَّـــا نُعَمِّـــرُ أَرْضَـــها
بالحُـــبِّ والقـــيَمِ الحِـــسانْ
ونـــردُّ أفـــواجَ الغُـــزاةِ
فـــلا نُهـــادِنُ أو نُهـــان
يـــا شـــامُ يـــا أُمَّ الـــدُنا
يـــا شـــامُ يـــا حِـــصْنَ الأَمـــانْ
للعُـــرْبِ أَنْـــتِ مَحَجَّـــةٌ
للحـــقِّ أنـــتِ الـــصَّوْلَجانْ
ولأَنْـــتِ – يـــا مَهْـــدَ الحـــضارَةِ –
والكرامـــــةُ توأمـــانْ



قبل الفتح العظيم، عرفها العرب باسم "دمشق".

وكان سكانها، الآراميون، قد أطلقوا عليها "دار ميسق"، لفظتين تعنيان: الدار المسقيّة، أو الأرض المسقيّة!

وحوَّر اليونان والرومان، الذين احتلّوها في حين من الدهر، اسمها إلى "داماسكس".

وفي الاكتشاف الخارق، الذي تمّ في سورية عام ١٩٧٥، في موقع "تل مرديخ" قرب حلب، فأُتيحت به معرفة المزيد والمدهش من المعلومات عن "مملكة إيبلا" - تلك الذي يعود تاريخها إلى ما قبل ألفي عام قبل الميلاد - ورد في الرُّقُم المكتشفة ذكر دمشق على هذا النحو: "ديماشكي".

فالاسمُ، على مرِّ التاريخ، لم يتغيّر، كما ترون... ولن يتغيّر، مع أن أهل سورية جَرَوا على أن يطلقوا على دمشق، في حياتهم اليوميّة: "الشّام"، التسميةَ ذاتها التي عَرَفَ بها العربُ البلاد كلها، والمنتمي إلى دمشق هو "شاميّ"، والجمع "شُوَام"، وذلك من باب إطلاق الكلّ على الجزء... ومثل ذلك يجري أيضاً في أرض الكنانة، فالقاهرة هناك تُسمّى: "مصر"، وعندما يقولون: "مصر أمّ الدنيا" يعنون أن القاهرة أجمل مدينة في المعمورة، ولعلهم في ذا لا يُغالون كثيرا.

دمشق البداية، والامتداد

غربيَّ دمشق تنتصب كتلةٌ جبليَة، ومن شرقيّها تبدأ صحراء (هي بادية الشام)، تترامى حتى ضفاف نهر الفرات. فدمشق، إذن، تقع على تَخْم صحراء، وما كان لها أن تستحيل إلى رياض غنَّاء لولا "نهر بردى"، الذي وجد لنفسه طريقاً عبر ذلك الخانق الذي حفرتْه يد الطبيعة في الكتلة الجبليّة.

ولقد ظهرت البيوت في هذه البقعة، منذ الألف الثالث قبل الميلاد، حيث ركَنَ الزُرّاع

ومارسوا نشاطهم في هذه "الواحة"، التي يسقيها نهيرُ بردى الصغير الرقراق... ثم ما لبث غنى الواحة أن اجتذب من السكان أعدادا.

في أول عهدها، قامت دمشق قريةً صغيرة على تلّ في موضعٍ جنوبيّ النهر، حيث يتيسّر لساكنيه تأمين حاجاتهم المنزليّة من المياه دون عناء. وفي الجانب الآخر من النهر، هو الشماليّ، كان ثمة ومايزال ما يُشبه "مصطبةً" متموّجةً نوعاً ما، ترتفع تدريجيّاً نحو جبل "قاسيون". الدماشقة الأوائل، سكنوا ذلك التلّ (وليس المصطبة)، الذي نفترض أنه يقع حيث تقوم قلعةُ دمشق اليوم وما يليها جنوباً وشرقا. ثم اتّسعت الرقعةُ المبنيّة فوق هذا التلّ، ممتدّةً حتى موقع "الباب الشرقي" الباقيةِ آثارُهُ حتى يومنا هذا. وأُحيطت "المدينة"، في أحد الأعصر التالية، بأسوار تمنع عنها غزوات المعتدين.

كذلك وجد أجدادُنا العربُ دمشق، يوم أقبلوا فاتحين. وزادوا عليها أرباضاً وضواحيَ في غرب وفي جنوب. ثم لم يكن بد من أن يجتاز السكانُ النهرَ إلى الضفّة الأخرى ويبنوا عليها ما بنوا، وبعدئذ يمضون نحو الجبل، فيقيمون في سفحه ضاحيةً، هي "الصالحيّة" اليوم، لم تلبث أن اتّصلت بالمدينة الأم، ثم يَستلقون في أحضان الجبل هنا وهناك، ويتسلّقون صدره، وأنظارهم ترنو إلى القمّة، فهم هذه الأيام (١٩٧٩) يمهّدونها طرقاً ومنعطفات، ويُشجّرونها، قصدَ أن يسكنوها، مُطلّين من هنالك على دمشق القديمة والحديثة جميعا!

دمشق الآرامية

مرّت على دمشق دولٌ وممالكُ وعهود، لا يرقى ما نعرفه عنها إلى أبعد من ألف عام قبل الميلاد، حين كانت عاصمةً لدولةٍ صغيرة للآراميّين.

وليس يعني ذلك أن دمشق وُجدت فجأة في عهد الآراميّين هذا. فهي قد مرّت، دون ريب، بمراحل من النموّ والتطوّر، وكانت شيئاً مذكوراً، بدليل أن اسمها قد ورد في بعض الوثائق، الفرعونية، في عداد المدن التي فتحها "تحوتمس الثالث" في القرن الخامس عشر قبل الميلاد، باسم "دمشقا"، وهو اسم لا يختلف عما ورد في التوراة والوثائق الآشورية.

أسّس الآراميّون دولةً في دمشق، كما أسّسوا، أواخرَ الألف الثاني قبل الميلاد، دويلاتٍ لهم انتظمت سورية الداخلية من الشمال حتى الجنوب. وكانت دولةُ دمشق أشهرَها وأشدَّها قوة ومَنَعة.

ومما وصل إلينا من أخبار دمشق الآرامية، خبرُ حروبها المتكررة مع "مملكة إسرائيل"، في العهد الذي تلا أيام داود وسليمان، وانتصار دمشقَ على مملكة إسرائيل انتصاراً مكّنها مرات عديدةً من أن تفرض على غريمتها دفع جزيةٍ من الذهب والفضة، وأن تُملي عليها تخفيضَ قواتها العسكرية أيضا!

ولقد كانت علاقاتُ دمشق مع الدويلات الآرامية الشقيقة، تتّسم بالتفاهم والصداقة. ومع أنها عقدت معها تحالفات للوقوف أمام الغزو الآشوري الزاحف من الشرقِ، إلاّ أن دمشق لم تقوَ على مجابهة الآشوريين، فسقطت في أيديهم عام ٧٣٤ قبل الميلاد: ومن أيدي الآشوريين انتقلت إلى الكلدانيين. ثم احتلها الفرس حوالى عام ٥٣٨ ق.م، واتخذوا منها عاصمةً للولاية السورية ومقرّاً للقيادة العسكرية الفارسية.

معبد حَدَد

ضئيلةٌ هي المعلوماتُ المتوافرة لدينا عن أحوال مدينة دمشق وأوصافها، في العهد الآرامي، بسبب ضياع معالم المدينة وصعوبة التنقيب عن

آثارها. ولكن من المؤكد أنها ثاوية، الآن، في قاع دمشق القديمة ذات الأسوار. وبما أن دمشق الآرامية كانت أصغرَ مساحةً من دمشق ذات الأسوار التالية عليها، فمن المرجَّح أن الأولى كانت تَشْغَل الجانبَ الغربيّ فقط من لاحقتها ذاتِ الأسوار.

وما نزعمه، دون كبير حرج، أن الأزقة، في دمشق الآرامية، وأن مساكنها، كانت تتوزّع، بغير نظام، ما بين القصر الملكي وبين معبدها الشهير.

فأما القصر الملكي، فأغلب الظن أن يكون موقعه في قلب المدينة، على تل من التلال المشرفة، التي ضاعت اليوم معالمها بسبب الارتفاع المستمرّ في مستوى الأرض على مرّ الزمن. ولقد أفاضت الرواياتُ التاريخية بالحديث عن أهمية القصر، سواء من ناحية حصانته وصموده أمام هجمات الآشوريين، أو من حيث غناه بمظاهر الأبّهة والترف.

وأما المعبد، الذي كان مكرّساً لعبادة إله الآراميين الكبير حدد (إله المطر والرعد)، فقد تأكد أخيراً أنه يقع حيث الجامع الأموي... وذلك بعد أن تمّ العثور عام ١٩٤٩ في أساسات أحد جدران الجامع، على ذلك الحجر البازلتي الذي يمثّل صورةَ أبي الهول المجنّح، وفوق رأسه تاجٌ يرمز لمصر العليا والسفلى، مما يدل أيضاً على أن الفن الآرامي كان متأثراً بالفن المصري.

ويدُ الله، التي منحت دمشق أخصب الأراضي، ألهمتْ أهلَها أن يتّموا صنيعَ الطبيعة، فجعلوا من أراضيها بساتينَ مثمرة ورياضاً مزهرة، كانت دائماً مبعث زَهْوهم وفخارهم، يرتوون في ذلك من بردى، في واديه الصغير ومن قناة متفرّعة منه تجري عبر دمشق هي "بانياس"، ويسقون واحتهم من قناة أخرى تجري في سفح قاسيون هي "تورا"... تلكما القناتان اللتان مازالتا ترفدان دمشق حتى يومنا هذا!

تحت حكم اليونان

انتقلت دمشق من يد الفرس إلى قبضة اليونانيين، بعد موقعة "ايسوس" الفاصلة عام ٣٣٣ ق.م، وألحقت بامبراطورية الإسكندر المقدوني. فكان على دمشق أن تتخلّى عن دورها السياسي لمدينة "أنطاكية"، التي تفوّقت عليها طوال العهدين اليوناني والروماني معاً.

وبعد وفاة الإسكندر، وتجزُّؤ امبراطوريته المترامية الأطراف، أصبحت دمشق تابعة لأنطاكية السلوقيّين تارة، ولإسكندريّة البطالسة تارة أخرى، متعرّضةً في ذلك لحروبَ واضطرابات حرمتها نعمةَ الأمن والاستقرار.

ونظراً لاعتقاد اليونانيين بتفوّقهم على سواهم من الشعوب الخاضعة لهم، ورغبة منهم في رفعها إلى مستواهم الثقافي والحضاري، فقد أنزلوا في مدنٍ سورية كبيرة، مثل حلب وحماه ودمشق، جالياتٍ يونانيةً، قاصدين إلى نشر ثقافتهم في المجتمع الآرامي، وإلى الإقلال من تأثير هذا المجتمع على القوم الحاكمين.

ومع أن أبناء هذه الجاليات فقدوا بعض خصائصهم القومية، بسبب هجرهم مواطنهم الأصلية، وسهولة العيش في الموطن الجديد. فضلا عن زواجهم من سوريات، إلا أنهم ظلّوا "يونانيين" بلغتهم ومشاعرهم، محافظين على ثقافتهم وآلهتهم، متمتّعين بوضعهم السياسي المتميّز، عاملين على إيجاد وضعٍ خاص بهم يتلاءم ومتطلّباتهم الحياتية... يتجلّى ذلك في أسلوب البناء وفي الأحياء التي أنشؤوها، فأسّسوا - شرقيّ المدينة الآرامية المتجمّعة حول "معبد حدد" - مدينةً يونانية، قوامها بيوتٌ متناسقة، في أحياء مستطيلة الشكل، ذات مساحات متماثلة، تخترقها شوارعُ مستقيمة... وفيها تلك الساحةُ العامة المسمّاة "الآغورا" (التي يعلوها حيّ القيمرية

اليوم!)، حيث تقام السوق ويجتمع المواطنون، كما يتجلّى في ساحة الألعاب الرياضية، والمسرح...

والرومان

وتظلّ دمشق في قبضة اليونان مدّةً نيَّفتْ على القرنين ونصف القرن من الزمان، قبل أن يدخلها فاتحاً القائدُ الروماني "بومبيه" عام ٦٤ ق.م. ومع أن الرومان لم يكونوا يَعُدُّون غيرَ الرومانيين سوى غرباء ورعايا، إلاّ أن دمشق أُتيح لها أن تتفيّأ في ظلّهم أيام سِلْمٍ تُعادل ما عانتْه من اضطرابٍ في حكم اليونان السابقين عليهم... فهيّأ لها ذلك أن تنعم بنظامٍ ساد فيه الأمنُ حتى لقد شمل البدو! وازدهرت التجارة ازدهاراً أتاحه لدمشق أنها طريقٌ للقوافل على امتداد رقعة الامبراطورية الرومانية المترامية الأطراف، بل إن التجار عادوا يستخدمون الطرق البريّة للمتاجرة عبر دمشق في اتجاه أقاصي أوربا الغربية (بلاد الغال).

ولم ينكمش السوريون على أنفسهم، في حكم الرومان الذي استطال سبعة قرون، بل شاركوا فيه أخذاً وعطاء. ولئن كان نال المدنَ السورية، مثل أنطاكية وتدمر، نموٌّ واتّساع فاقا كل ما كان مقدّراً، لقد أسهم السوريون بعامة في الحياة الرومانية في شتى الميادين الحضارية، فكان منهم مهندسون عرف التاريخُ واحداً منهم هو "أبولودور الدمشقي"، الذي بلغت شهرته روما، في مطلع القرن الثاني الميلادي، فبنى بعض أوابدها الشهيرة (مثل "فوروم تراجان" في روما، والجسر العظيم على نهر الدانوب).

والحاكمون بدورهم رفعوا من مكانة دمشق، حين أصبحت، في عهد "الامبراطور هادريانوس"، من أمهات المدن، وحصلت على لقب "ميتروبول" (أي مدينة رئيسيّة)، ثم على لقب "مستعمرة رومانية" في "عهد الامبراطور ألكسندر سيفير" (٢٢٢ - ٢٣٥م)، المنحدر من أصل سوري، فأكسبها ذلك امتيازات.

سور، وقناة، ومعبد لجوبيتر

وما كان لهذا الازدهار إلا أن يترك بصماته في جبين دمشق.

فقد أحيطت المدينة بسور، تمّ بناؤه على طريقة التحصين الروماني، مستطيلاً مستقيم الأضلاع (١٥٠٠ متر × ٧٥٠) عدا الضلع الرابع المشرف على نهر بردى، والذي يحاذيه تعرُّجاً، وقام النهر منه مقام الخندق. وخُصّ هذا السورُ بسبعة أبواب... فازدادت دمشق به أمناً!

ولما كان سكان المدينة قد تزايد عديدهم في ظل ذلك الازدهار، فقد مسّت الحاجة إلى مزيد من المياه، التي جُرَّت إليها من بردى، بقناة حُمل بعضُ أقسامها على قناطر، مايزال يُشاهد بعضها حتى اليوم، وتسمّى "القنوات"... فأصبحت تخترق المدينةَ، من يومئذ، قناتان: أولاهما قناة "بانياس" المجرورة منذ عهد الآراميين.

والمعبد، الآرامي، الذي كان قد تحوّل إلى يوناني، أُعيد، في أيام الرومان، بناؤه وفقاً لذوق العصر، وسُمّي "معبد جوبيتر"، فجاء آبدةً، حتى لقد عُدَّ من أشهر المعابد في العالم القديم، اتّساعا وفخامة، وبدا بأبوابه وأسواره أشبه بمدينة حصينة، وذلك ما جعل العرب، حين عرفوه، يطلقون عليه: "حصن دمشق" أحياناً، و"المدينة الداخلة" أحياناً أخرى!

ولقد عُني الرومان بذلك الشارع المستقيم، ذي الأقواس الثلاث، الممتدّ من شرقيّ المدينة إلى غربيّها بطول ١٥٠٠ متر، مختَرقاً المساكن المتراكمة في المدينة القديمة، ووسّعوه عرْضا فبلغ ٢٥ متراً، ورصفوا بالبلاط نصفَهُ، وتركوا نصفه الآخر للرصيفين المسقوفين ومن ورائهما

الحوانيت وقد ظللتها الأروقة على عُمُد مرفوعة، كما يتصوّر الباحث الفرنسي "سوفاجيه

ولن يفوتنا بيان أن هذا الشارع المستقيم، قد ازدان بثلاث من أقواس النصر الفخمة، عُثر على إحداها في السنوات الأخيرة، وكانت مطمورةً على عمق ٤٥٠ سنتمتراً من سطح الأرض الحالية، وهي تحتفظ بإحدى فتحاتها كاملةً وببعض أعمدتها. ويُعتقد بأن هذه القوس هي ما يسمّيه ابن عساكر بـ "قنطرة سنان". وقد عَمَدت مديرية الآثار بدمشق إلى ترميمها ورفعها إلى مستوى الشارع... فأنت تراها في مرورك عبر ذلك الشارع المستقيم – الذي لم يعد تام الاستقامة! – من "باب الجابية" غرباً حتى "الباب الشرقي".

ومازال ماثلاً أيضاً، بعضُ تلك الأحياء الرومانية، ولنا من أسمائها الموروثة دليل: فالحي المعروف اليوم باسم الديماس يقابل موقع **Demosion** (أي دائرة المالية) التي كانت قائمة قرب الساحة العامة؛ وكذلك الموضع المسمّى الفُرْناق **Fornaces**، فإنه يدلّ على مكان الفخار، والفسقار **Foscarion** يدل على مكان صنع الفسقة وبيعها (وهي شراب فيه ماء وخلّ، كان يحتسيه الجنود الرومانيون)، ثم المكان المسمّى المقصلاّط، حيث تلتقي فيه الأسواق المسقوفة **Mecella**، وكان أمام مدخلها قوسٌ يعلوها تمثال لرجل مبسوطة ذراعه!

دمشق المسيحية

وثنيّةً كانت دمشق، آراميةً أو محكومةً من اليونان والرومان. ثم دخلت المسيحية، فكان لها في الدين الجديد أتباع ومريدون يخلصون له ويدافعون عنه، وقدّمت في سبيل ذلك شهداء، وعرفت قدّيسين مشهورين، مثل: النبي يحيى، والقديس حنانيا، والقديس بولس.

وحين انقسمت الامبراطورية الرومانية المسيحية، في القرن الرابع الميلادي، إلى غربية وشرقية، كان من نصيب دمشق، وبالأحرى سورية جميعاً، أن تصبح من أملاك الدولة الشرقية البيزنطية، وعاصمتها القسطنطينية.

ومع اعتناق دمشق للمسيحية، كان لا بد لمعبد جوبيتر، أو لجانب منه، أن يتحوّل إلى كنيسة للقديس يوحنا المعمدان (النبي يحيى)، وأُنشئت كنائس عديدة في المدينة داخل الأسوار، ككنيسة المصلّبة والمقصلاّط ومريم وبولس واليعاقبة، اندثر بعضها وتجدّد بعضها الآخر ومازال قائماً شاهدا. وشُيِّدت في الضواحي أديرةٌ، منها: دير سمعان ودير النساء، و"دير مرّان" في سفح جبل قاسيون الغربي، الذي أُطلِق اسمه، في الفتح العربي، على جبل قاسيون ذاته... وذكرت الروايات أن الخليفة الوليد بن عبد الملك قد توفّي بدير مرّان (والمقصود: جبل قاسيون).

الأنباط يدخلون دمشق مرتين

واستكمالاً لهذه البانوراما السريعة، لا بد من الإشارة إلى أن الأنباط، العربَ، قد ظهروا على مسرح الأحداث في المنطقة، فأزعجوا اليونان في حكمهم لسورية، كما أزعجوا الرومان من بعدهم. ولقد تمكّنت هذه القوة الوطنية الجديدة من إقامة دولة عربية في الأردن وحوران (جنوبي دمشق)، واتخذ الأنباطُ من البتراء "في شماليّ الأردن" عاصمةً لهم، ونجحوا في مدّ سلطانهم على دمشق وضمِّها إلى دولتهم مرتين: عام ٨٥ ق.م. في عهد ملكهم "الحارث الثالث"، ثم في عام ٣٧ بعد الميلاد أيام "الحارث الرابع".

ولن تفوتنا الإشارةُ أيضاً إلى أن الحاكم الروماني قد أوكل للغساسنة العرب المتنصّرين، مهمّة حماية الحدود مع العراق التي كان يحكمها الفرس، وأن الفرس استطاعوا احتلال سورية عام

٦١٢ في أيام "كسرى الثاني"، ثم استردّها "هرقل" ملك الروم بعد خمسة عشر عاماً... ولكنها لن تلبث في يد الروم، أخيراً، إلاّ سنوات معدودات، ريثما تُشرق على دمشق شمسُ الإسلام.

دمشق تنبض بالإسلام

فلما انبعث الصوت الجديد في صحراء مكّة، وتردّدت أصداؤه في الجزيرة العربية، كان قد آن لبلاد الشام أن ينطق لسانُها بالعربية المبينة وأن ينبض قلبُها بالإسلام.

كانت دمشق قد عانت كثيراً من ويلات الحروب التي دارت في ساحاتها بين الفرس والبيزنطيين (الروم)، وسئمت النزاعات المذهبيّة التي نشبت بينها وبين القسطنطينية، وها هم القادمون من الجنوب، الذين لوّحت الشمس جباههم، يطرقون أبواب دمشق... فيبذل الحاكمون، الرومُ، أقصى ما يستطيعون من ضروب المقاومة، ولا يبذل منها الدماشقةُ إلاّ قليلا.

انتصر العرب المسلمون على الروم، في جولةٍ أولى، في معركة "اليرموك" الحاسمة، وساروا، بقيادة أبي عبيدة بن الجرّاح، إلى دمشق مظفَّرين. حاصروها أشهراً أربعة، وقد اعتصم المدافعون بالأسوار المنيعة، يراودهم أملٌ في أن يبعث إليهم هرقل بجيش من جيوشه، فيضطر المهاجمون إلى لقائه منصرفين عن دمشق.

وكان خالد بن الوليد قد نزل بجيشه على "الباب الشرقي"، ونزل عمرو بن العاص على "باب توما". وأما أبو عبيدة فقد نزل على "باب الجابية" غرباً، ونزل كلُ قائد على باب من أبواب دمشق الأخرى. وأقامت قوةٌ منهم عند قرية "بَرْزَة" بسفح قاسيون على طريق حمص، وقوةٌ أخرى على طريقٍ بعلبك، قَطْعاً للطريق على قوات الروم إن هي أ بلت عبر إحدى هاتين الجهتين.

وتقول الروايات التاريخية أنه حدث أن وُلد لبطريرك الروم على دمشق طفلٌ، فأقام احتفالاً كبيراً وأولم وليمة لحامية المدينة المحاصرة، فأقبلوا يأكلون ويشربون وهم مطمئنّون إلى حصانة استحكامات المدينة.

فجاءت عيونُ خالد بن الوليد من وراء الأسوار ينبئونه بالخبر، فتقدّم هو وأشدُّ من معه، عابرين الخندقَ سباحةً على قُرب منفوخة، وراحوا يقذفون بسلالم الحبال إلى أعلى السور، حتى اشتبك اثنان منها، فتسلّقهما اثنان من الجند فأثبتا مزيداً منها بأعلى السور، فتابع الجندُ تسلُّقها في صمت، وبينهم خالد، وانحدروا إلى الداخل، وحامية دمشق في طعامها وشرابها، فكبّروا بصوتٍ واحد، وتمكّنوا من فتح الباب الشرقي، فتدفّق من خلاله مَنْ كان خارجه، وبدأت المعركةُ في شوارع دمشق...

ولما رأت قيادة الروم ذلك، قررت طلب الصلح على الفور، وطلبوه من أبي عبيدة الرابض بجيشه تجاه باب الجابية، فقبله القائد العربي، وفُتحت أبواب دمشق جميعها للمسلمين، فتدفّقوا والتقوا في وسط المدينة... ومما تضمّنه كتابُ الأمان، الذي كُتب لأهل دمشق، الأمانُ على الدماء، والأمان على الأموال، والأمان على الدين وعلى الكنائس من أن يسكنها المسلمون أو يهدموها.

وهكذا دخل خالد دمشق عَنوةً، ودخلها أبو عبيدة صلحاً. وكان ذلك يوم الأحد ١٥ من رجب عام ١٤ للهجرة (٣ من أيلول ٦٣٥ ميلادية).

واستخلف أبو عبيدة على دمشق يزيد بن أبي سفيان، ثم مضى ومعه خالد ليفتحا عنْوةً أو صلحا سائر مدن الشمال... فكانت المدن، كما يقول أحد المؤرخين المعاصرين: "تتساقط أمام الفاتحين تساقط أوراق الخريف في هبوب الريح"!




دمشق درة التاريخ..

شعر: خالد بدور

بـــكِ يـــا دمـــشقُ فُؤادُنَـــا مفتـــونُ
ولـــكِ المحبَّـــةُ ثـــورةٌ وجُنـــونُ
مـــن عهـــدِ آدمَ والزَّمـــانُ بِعُرفـــهِ
فيـــكِ الخمائـــلُ جَنَّـــةٌ وعُيـــونُ
صُـــغْتِ الجمـــالَ مُـــورَّداً ومُعَطَّـــراً
والعِطـــرُ ضَـــوْعٌ دَائـــمٌ وفُتـــونُ
وتناســـقتْ في الغـــوطتين زهُورهـــا
والفَـــيءُ فيهـــا مرتـــعٌ وحـــنينُ
وبيوتُهـــا عربيَّـــةٌ وأصـــيلةٌ
والـــسَّاحُ فيهـــا مِتْعـــةٌ وسُـــكُونُ
في كُـــلِّ بيـــتٍ بِرْكَـــةٌ فَتَّانَـــةٌ
فيهـــا الميـــاهُ تنـــاغُمٌ وشُـــجونُ
واليـــاسمينُ بزهـــرهِ متـــأنِّقٌ
والطِّيـــبُ مِنـــهُ مُـــسافِرٌ ورصـــينُ
والغِيـــدُ فيهـــا بالجمـــالِ تألَّقَـــتْ
والـــصَّبُ منهـــا تائِـــهٌ وحـــزينُ
إن تمنحـــيني مـــن لقائِـــكِ لحظـــةً
فأُريـــكِ نـــارَ العِـــشْقِ كيـــفَ تكـــونُ




التاريخ يرخي ظلاله على دمشق

بقلم:
نصر الدين البحرة

هناك مدن في وطننا العربي أقدم من دمشق مثل الوركا: أوروك في العراق الشقيق وأريحا في فلسطين الغالية، لكن هذه المدن بادت وانقرضت، ولم يبق منها سوى بعض آثار تدل عليها.

دمشق هي أقدم مدينة ظلت مأهولة في العالم كله. وفيها آثار ترجع إلى الحقب التاريخية القديمة التي عاشت فيها هذه الحاضرة الخالدة: الكنعانية، الآرامية، الإغريقية، اليونانية، الرومانية، الإسلامية.. إلخ.

وخلال ألفي سنة قبل ميلاد السيد المسيح تعرضت دمشق لكثير من الكوارث الطبيعية كالزلازل والحرائق، والغزوات العسكرية الوحشية التي عرف بها التاريخ القديم من جهاتها الأربع. ولكنها بعد الفتح العربي سنة ١٢ و ١٣ هـ/ ٦٣٣ و ٦٣٤م عرفت الاستقرار والسيادة، وبلغت أوج أمجادها

أيام خلفاء بني أمية ولاسيما أيام عبد الملك بن مروان وابنه الوليد بين عامي ٦٥ هـ/ ٦٨٥م و ٩٦هـ/ ٧١٥م. فق ثبّت العرب عظمتهم وقوتهم في إمبراطورية ضخمة امتدت من الهند حتى المحيط الأطلسي، ومن جبل أرارات إلى بحر العرب جنوب الجزيرة.

وهناك حكاية تختصر الكثير من الكلام على الفخامة التي بلغتها الدولة أيام الأمويين، ذاك أن الخليفة الأموي الورع عمر بن عبد العزيز استنكر الإسراف والترف اللذين حفل بهما الجامع الأموي، وقد بني زمن الوليد بن عبد الملك، وأنفقت في هذا السبيل أموال طائلة، فأمر بنزع بعض ما في الجامع من نفائس وردّه إلى بيت المال، وكان الوليد قد قرر أن يبني مسجداً يتناسب ومكانة المدينة التي غدت عاصمة لأعظم دولة عربية في التاريخ.

كانت سنوات غير كثيرة قد مرّت على رحيل الخليفة الوليد، حين فكر عمر بن عبد العزيز على هذا النحو، ولكن وفداً من بيزنطة: دولة الروم في آسيا الصغرى - مكان تركيا حالياً - زار دمشق في هذه الأثناء وشاهد الجامع الأموي، وما فيه من روائع، جعله يعدل عن قراره: نزع بعض نفائسه. لماذا؟ لقد سقط رئيس الوفد مغشياً عليه وهو يتأمل معجزات البناء والزخرفة والتزيين، فلما أفاق سُئل عمّا أصابه فقال: إننا أهل رومية نتحدث أن بقاء العرب في هذه البلاد قليل، فلما شاهدنا هذا البنيان أيقنّا أنهم باقون فيها، وأنه لا رجعة لبيزنطة - التي كانت تحكم هذه البلاد - بعد اليوم.

وقال عمر بن عبد العزيز بعد أن عرف هذا الأمر: ما أرى مسجد دمشق إلاّ غيظاً على الأعداء.

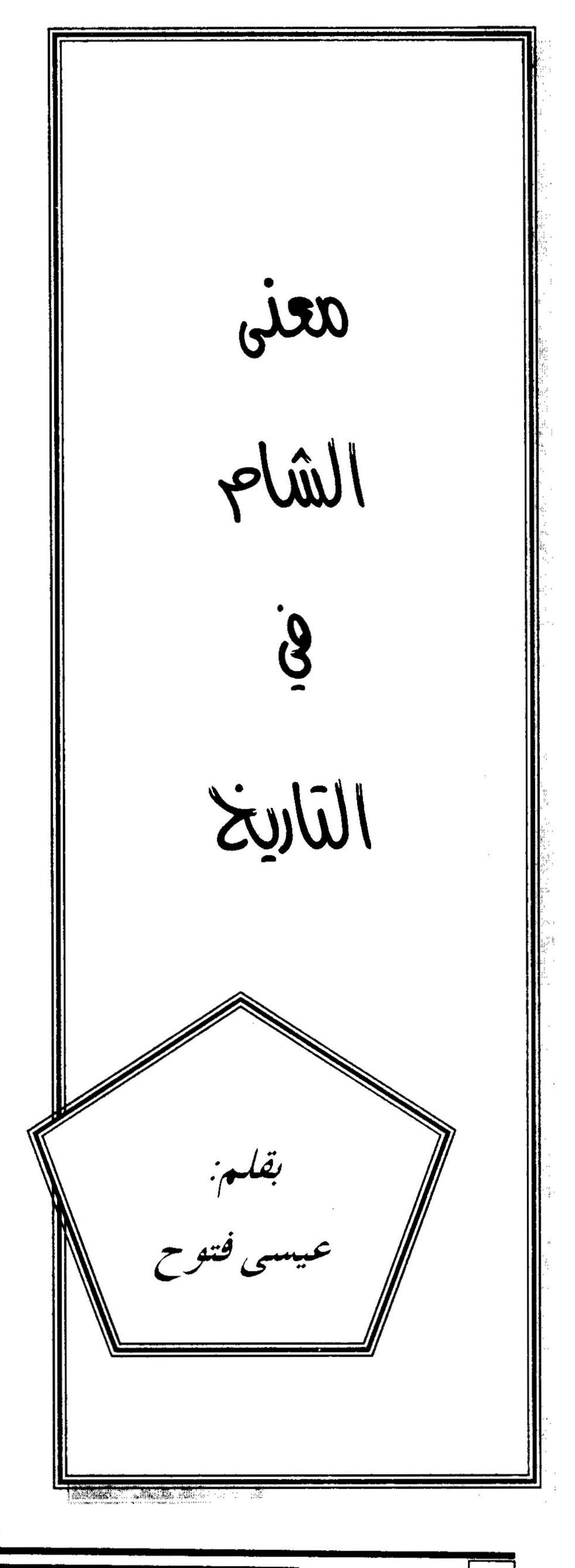


أهوى دمشق..

شعر: علي الحبيب

أهْــوى دِمَــشْقَ وأهْــوى كــلَّ مَــنْ فيهــا
أرى النجـــومَ تُغنّـــي في لياليهـــا
ودَّعْـــتُ فيهـــا فـــؤاداً لـــيس يبْرحُهـــا
يـــا روضـــةً بـــدمي مـــا عـــشتُ أفْـــديْها
فيهـــا جِنَـــانٌ عَلَـــتْ بـــالقرب مـــن بـــردى
أفْياؤهـــا جنَّـــةٌ خُـــصَّتْ لواديْهـــا
أرضُ الـــسلامِ وأرضُ الخـــيرِ مـــن أمـــدٍ
فالمجـــدُ يعـــشقها واللهُ يحميهـــا
أرضُ الجهـــادِ وعـــشقُ المـــوتِ رايتُهـــا
ملْفـــى الأســـودِ إذا نـــادتْ روابيهـــا
هـــذي دمـــشقُ الـــتي أهْـــوى نـــسائِمَها
لـــن تـــستكينَ ولـــنْ تخبـــوْ مـــساعيها
حتـــى تُعيـــدَ لـــدارِ العُـــرْبِ عزّتهـــا
فالـــدهرُ يـــشهدُ كـــمْ أعْطـــتْ بماضـــيها



اصطلح المؤرخون القدماء على تسمية سورية ولبنان والأردن وفلسطين ببلاد الشام، إلا أن الشام اسم غلب على مدينة دمشق، من باب إطلاق العام على الخاص، والكل على الجزء، إذ كثيراً ما يسمي العرب المدن الرئيسية الهامة بأسماء أقاليمها، فيقولون: دمشق أو الشام، القاهرة أو مصر، صحار أو عمان، دون فرق بين الاسمين.

هناك آراء شتى في أصل تسمية الشام ومعناها: فقيل: سميت الشام أو الشآم شاماً لأن قوماً من بني كنعان تشاءموا إليها، وقيل لأنها تقع شمال الكعبة، كما سميت اليمن يمناً لأنها تقع عن يمينها، وقال الحافظ السهلي في كتابه "التعريف والإعلام": الشام بالسريانية معناها الطيب، وسميت بذلك لطيبها وخصب تربتها، وقيل سميت بسام نسبة إلى سام بن نوح، واسمه بالسريانية شام، وقيل لأن أرضها مختلفة الألوان بالحمرة والسواد والبياض كالشامات، وقيل أيضاً سميت الشام شاماً لكثرة قراها وتداني بعضها من بعض فشبهت بالشامات، وقيل سميت شاماً لأن أهل اليمن تشاءموا إليها من يمنهم، كما يقال تيامنوا أو تياسروا، وقيل أخذ اسم الشام من اليد الشومى أي اليسرى واليمنى أختها، فالشومى من الشوم، واليمنى من اليمن...

ويجوز أن تكون شام جمع شامة، والشامة هي العلامة، فيقال شامة وشام مثل حاجة وحاج، والرجل أشأم إذا كان ذا شامة، وحقيقة الشامة أن تكون مخالفة للون سائر الجسم، وقيل إنها مشتقة من كلمة شامين وهي أحدى مدن فلسطين القديمة.

ويقال للشام اللّماعة واللماعة بالركبان تلمع بهم أي تدعوهم إليها، وقد تجمع الشام

على شامات، ومن الناس من لا يجعلها إلا شاماً واحدة.

جاء ذكر الشام في الكتب المقدسة والكتب التاريخية القديمة، ويجمع المؤرخون على أنها من أقدم مدن العالم التي لا تزال عامرة ومأهولة بالسكان حتى اليوم إن لم تكن أقدمها جميعاً، رغم مضي أكثر من أربعة آلاف سنة على بنائها، وقد اختلفوا في أول من بناها، وذهبوا في ذلك مذاهب مختلفة، فالمؤرخ "يوسيفوس"" يقول أن بانيها هو دمشاق بن كنعان، ويقول غيره إنه جيرون بن سعد بن عاد بن ارم، وكان بناؤها على أعمدة من رخام، وزعم آخرون أن بانيها هو أليعازر غلام إبراهيم الخليل، وكان حبشياً وهبه له نمرود بن كنعان، وكان اسم الغلام دمشق أو دمشاق فبناها على اسمه، وقيل بل غلام اسكندر الكبير واسمه دمشق... وإذا كانت دمشق مدينة مشهورة زمن إبراهيم الخليل، فعلى أرجح الظن أنها وجدت قبل ذلك التاريخ بمئات السنين، وربما في الألف الثالثة قبل الميلاد.

وعلى الرغم من محاولات المؤرخين الجادة معرفة اسم بانيها، وتحليل معنى اسمها واشتقاقه وتحديد تاريخ بنائها، فإن محاولاتهم لم تكن إلا من قبيل التكهنات والتخمينات، لأن أخبار دمشق أو الشام تكاد تكون غامضة في الأيام الغابرة، وما وصلنا منها إنما هو قليل جدا.

* * *

لقد تغنى الشعراء والكتاب والفنانون قديماً وحديثاً بالشام، وأشادوا برقة هوائها، ووفرة ثمارها، وجمال طبيعتها، وعذوبة مياهها، وغنى تربتها، وسحر غوطتها، حتى إنه روي عن النبي محمد قوله: "الشام صفوة الله من بلاده، وإليه يجتبي صفوته من عباده"، وقال كعب الأحبار: "ما بعث الله نبياً إلا من الشام، فإن لم يكن من الشام هاجر إليها"، وقيل: "قسم الخير عشرة أعشار، فجعل تسعة أعشاره في الشام".

قال ابن بطوطة: "ودمشق هي التي تفضل جميع البلاد حسناً، وتتقدمها جمالاً، وكل وصف وإن طال، فهو قاصر عن محاسنها".

وقال ابن جبير: "وأما دمشق فهي جنة المشرق، ومطلع نوره المشرق، قد تحلت بأزاهير الرياحين، وتجلت في حلل سندسية من البساتين، وحلت من موضع الحسن بالمكان المكين... ظل ظليل، وماء سلسبيل، ورياض يحيي النفوس نسيمها العليل، وقد سئمت أرضها كثرة الماء، حتى اشتاقت إلى الظمأ، وقد أحدقت البساتين بها إحداق الهالة بالقمر، والأكمام بالثمر، وامتدت بشرقيها غوطتها الخضراء امتداد البصر".

وقال عرقلة الدمشقي الكلبي:

الشامُ شامةُ وجنةُ الدنيا كما
إنسانُ مقلتِها الغضيضةِ جلَّق
من آسِها لكَ جنةٌ لا تنقضي
ومن الشقيقِ جهنمٌ لا تحرِق

وقال المقري صاحبُ "نفح الطيب":

دمشقُ لا يُقاس بها سواها
ويمتنع القياسُ مع النصوصِ
حلاها راقتِ الأبصارَ حسناً
على حكمِ العمومِ أو الخصوصِ

بـــساطَ زمـــــرد نُثـــــرت عليـــــه
مـــــن اليـــــاقوتِ ألْـــــوانُ الفـــــصوصِ

وقال شرف الدين بن محسن:

دمـــــشقُ بنــــا شـــوقٌ إليهـــا مُبَـــرِّحٌ
وإن لـــــجَّ واش أو ألـــــحَّ عَـــذُولُ
بـــــلادٌ بهـــــا الحـــــصباءُ دُرٌّ وتربُهـــــا
عبيـــــرٌ وأنفـــــاسُ الـــــشَّمالِ شَـــمُولُ
تسلـــسل فيهـــا ماؤهـــا وهـــو مطلـــقٌ
وصـــحَّ نـــسيمُ الـــروضِ وهـــو عليـــل

وتلقـــب دمـــشق بجيـــرون وجلـــق والفيحاء، أما جيرون فهو بـــاب شـــهير مـــن أبوابها، ولشهرته غلب لقبه عليها بدليل قـــول الشاعر:

بـــاكرْ دمـــشقَ بمـــشقِ أقـــلامِ الحَيَـــا
زهـــر الريـــاض مرصـــعاً ومكلـــلا
واجـــررْ بجيـــرونَ ذيولَـــكَ واختـــصصْ
مغنـــىً تـــأزَّرَ بـــالعُلا وتـــسربلا

وقد يكون نسبة إلى جيرون بن سعد بن عاد بن عوص الذي يزعمون أنه بناها.
ولم يسمع اسم جلق قبل أن اســتخدمه النابغة الذبياني فـــي قولـــه يمـــدح الحارث الغساني:

لـــئن كـــان للقبـــرين: قبـــر بجلـــق
وقبـــر بـــصيداء الـــذي عنـــد حـــارب

وقول حسان بن ثابـت فـــي أمـــراء الغساسنة:

للهِ درُّ عـــــصابة نـــــادمتهم
يومـــاً بجلَّـــقَ فـــيَ الزمـــانِ الأول

وكل ما يستنتج من قول الشاعرين أن جلق من منازل الغساسنة، وهو مـــا لا ينكـــره أحد، أما كون جلق هي دمـــشق نفـــسها فـــلا يمكن، والغساسنة لم يملكـــوا دمـــشق، ولـــم يدخلوها حكاماً، ثم إن الجغرافيين والمـــؤرخين ينكرون هذه التسمية، فلا يذكر ياقوت الحموي جلق من أسماء دمشق في وصفه المستفيض، وكـــذلك المقدســـي واليعقـــوبي والمـــسعودي والاصطخري وابن حوقل وابن جبيـــر، وهـــذا البكـــري يقـــول: ""جلـــق موضـــع بالـــشام""، والهمداني صاحب ""صفة جزيـــرة العـــرب"" لا يذكر جلق في ديار جزيرة العرب، ويغفل تماماً ذكر دمشق لأنها ليست من أرض تلك الجزيرة، وهذا قول حمزة الأصفهاني في كلامه عن جفنة الغساني: "ولما ملك جفنة قتل ملوك قضاعة... وبنى جلق والقرية وعدة مصانع".
أما قول المتأخرين من الشعراء كعبد الغني النابلسي:

إن ســـامك الخطـــبُ المهـــولُ فأقلقـــا
فـــانزلْ بـــأرضِ الـــشامِ واسـكنْ جِلَّقـــا

أو أحمد شوقي:

قـــم نـــاجِ جلَّـــق وانـــشدْ رسـمَ مـــن بـــانوا
مـــشتْ علـــى الرســـمِ أحـــداثٌ وأزمَـــانُ

فلا طائل تحته ولا يصح مستندا لإقرار المواقع الجغرافية. أما الفيحاء فربما سميت به لاتساعها.






شعر: ضياء الدين الورع

يـــا شـــامُ أنـــتِ طُفـــولتي وشـــبابي

يـــا فـــرحتي في صُـــحبةِ الأتـــرابِ

يـــا زهـــرةَ الأفنـــانِ في عُمْـــرِ الـــصِّبا

والقلـــبُ يعـــشقُ بـــسمةَ الأصـــحابِ

يـــا حلـــوتي يـــا شـــآم أنـــتِ صـــبابتي

وحبيـــبتي شـــيخاً علـــى الأبـــوابِ

مـــازال قلـــبي للـــصَّبيَّةِ عاشِـــقاً

فالحُـــسْنُ يخطـــرُ ســـاحِرَ الألبـــابِ

قلـــبٌ يـــذوبُ صـــبابةً في حُـــسنها

والـــرّوح تهـــوى نفحـــةَ الأطيـــابِ

والقلـــبُ خفَّـــاقُ الجوانـــب هـــائِمٌ

في حُـــسنِها والطَّيْـــفُ في أهـــدابي







ولقــــد تجلَّـــى الحُــسْنُ في جنَّاتِهــا

وأريـــحُ عطــرِ الـــوردِ فيــه تُرابـــي

ولقــــد عــــشقتُ ترابهـــا وضـــممتُهُ

أفـــضي إليـــه مـــن الـــسرائرِ مـــا بـــي

والـــشَّمسُ في شـــفقٍ تـــشعُّ نـــضارةً

والبـــدرُ يعـــشَقُ رفقَـــةَ الأحبـــابِ

يـــا زهـــرةً تُحيـــي الحـــنينَ بمُهجـــتي

فلحـــارةٍ ولـــساحةٍ وقِبـــابِ

قبَّلـــتُ جُـــدرانَ البيـــوتِ ودوحَهـــا

في ســـفحِ رابيـــةٍ وخُـــضْرِ هِـــضابِ

يجـــري زكـــيُّ المـــسكِ في جنَّاتهـــا

مـــاءُ الغـــديرِ يطيـــبُ فيـــه شـــرابي

تلـــك الـــديارُ فخـــارُ عـــزٍّ مجـــدُها

في روضِ ســـهلٍ أو نـــسيمِ روابـــي

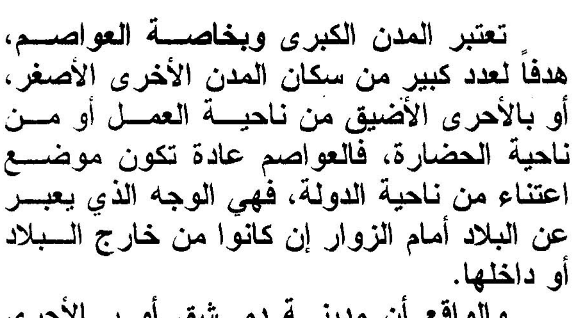
وخـــواطري مـــن طيـــبِ روضـــة جنَّـــةٍ

أفـــدي الـــدِّيارَ بمهجـــتي وشـــبابي




الطريق إلى دمشق مع بعض الذكريات

بقلم:
محمد عدنان مراد



تعتبر المدن الكبرى وبخاصة العواصم، هدفاً لعدد كبير من سكان المدن الأخرى الأصغر، أو بالأحرى الأضيق من ناحية العمل أو من ناحية الحضارة، فالعواصم عادة تكون موضع اعتناء من ناحية الدولة، فهي الوجه الذي يعبر عن البلاد أمام الزوار إن كانوا من خارج البلاد أو داخلها.

والواقع أن مدينة دمشق أو بالأحرى (الشام) – كما أحب أن أطلق عليها أنا وغيري من المحبين لها – لها مكانة خاصة، فهي بالإضافة إلى أنها عاصمة بلدنا الجميل، هي وبحسب ما قرأناه وما تعلمناه في المدارس، عاصمة تختلف بالنسبة لنا نحن العرب عن غيرها من العواصم، لأنها العاصمة التاريخية للقوة العربية.

وقد أصبحت في مختلف أوقاتها وأزمانها ومن يحكمها بداية الانطلاق العربي الإسلامي نحو آسيا وأفريقيا وأوربا. فمن دمشق انطلقت الجيوش لتصل إلى الصين من جهة، وإلى فرنسا من وجهة ثانية، وأصبحت عاصمة العالم المعروف في ذلك الوقت.

لذلك كانت دمشق (الشام) ولا تزال في نفوسنا لها مكانتها العالية الفخورة بأمجادها، وقد تركزت فيها أمجاد العرب وتاريخهم الطويل، ليس في شوارعها ولا في أبنيتها التاريخية، ولكن في ذهن كل عربي أينما كان في الوطن العربي من محيطه إلى خليجه، ويظهر ذلك دائما في تشبيه كل ما هو جيد وما هو فخور (بالشام).

وهذا ما كنت أشعر به في خلال رحلاتي الطويلة وإقامتي في أصقاع عديدة في أفريقيا وآسيا وأوربا.

ففي أحد الأيام (منذ حوالي ٢٥ عاماً) كنت أزور مدينة مأرب التاريخية في اليمن وكان الوصول إليها بالطائرات، ولأول وهلة وعندما نزلت من الطائرة وتجولت في أرجائها ورأيت مكان سدها العظيم والوادي الذي يغذيه بمياهه، وتعلق المدينة بالجبل، وانفتاح السهول أمامها كان تعليقي لمن حولي إنها تشبه الشام، وحسب قول بعض المؤرخين اليمنيين أن سكان مأرب تركوها بعد سيل العرم وسكنوا دمشق وهم من (قضاعة).

منذ صغري كنت أسمع بدمشق وأسمع بنهر بردى وغوطتها الجميلة، وأكثر من ذلك أسمع عن رجالها، فوالدي كان تاجراً وعلاقته كانت حميمة مع بعض التجار من الشام الذين كانوا يزوروننا في بعض الأحيان، وكنت أسمع دائماً منهم عن الثورة السورية ورجالها ومقاومتهم للمحتل، وعن الغوطة وعن بردى، مما كان يجعلني بشوق لرؤية ذلك. مع أني كنت أعيش مع أهلي بقرب العاصي وليس بيننا سوى البساتين الجميلة والتي أصبحت فيما بعد حديقة عامة، وكنت أسمع أيضاً أن أقرب سكان المدن لبعضهم هم سكان دمشق وحماه، وبخاصة بين حي الميدان وحي الحاضر الذي كنت مع أهلي نعيش فيه... وهذا في الواقع ما يفسر وجود هذا العدد الكبير من الأصول الحموية في دمشق.

كانت هناك حادثة صغيرة أوصلتني إلى دمشق ولم أكن قد تجاوزت العاشرة، وذلك عندما عين أحد أخوتي أستاذاً في (صيدنايا) وكنت محباً له وكان بالنسبة لي الأخ والأب والأم رغم وجودهم جميعاً، وقد أثر في نفسي غيابه... وكنت أبكي ليلاً ونهاراً وأطلب الذهاب لدمشق واللحاق بأخي... وكانوا يحاولون تسليتي بأخذي إلى أماكن كانوا يقولون لي أنها دمشق ولكن دمشق بالنسبة لي هي أخي، فأين أخي؟!

وأخيراً وجد من أسافر معه إلى دمشق والتقيت بأخي وردت الروح لي، وهنا كانت لي فرصة برؤية دمشق مع أخي الذي أحبه مما جعل انطباعي عنها جميلاً.

ودارت الأيام وفي عام ١٩٣٨ كان مخيم بلودان الكشفي الأول، واشتركت فيه مع أخوتي، وكانت مناسبة لرؤية دمشق، ولكن لم تكن الزيارة كما أرغب بسبب سرعتها، ومع الزمن تعددت الزيارات لدمشق وازداد شعوري نحو المدينة (العاصمة) بالمحبة والتقدير، وذلك عن طريق اشتراكي (ككشاف) في مناسبتين، الأولى عند شفاء الرئيس القوتلي من المرض، والثانية عند الاحتفال بالعيد الأول للجلاء عام ١٩٤٥، وفي هذا الاحتفال شعرت بكبر دمشق وشوارع دمشق، فقد قمنا ضمن المنظمة الكشفية بجولة ليلية ونحن نحمل المشاعل، ابتداءً من مدرسة التجهيز الأولى (ثانوية جودة الهاشمي) واتجهنا سيراً على الأقدام إلى الميدان، ومن الميدان عدنا عن طريق شارع بغداد الذي كان لا يزال مفروشاً بالتراب، وفي اليوم الثاني كنا نسير على غير هدى في دمشق ونركب الترامواي ونزور الجامع الأموي الذي بهرنا بعظمته.

وأكثر ما أثارني في العرض العسكري هو اشتراك مفارز من الجيوش العربية في الاحتفالات الأولى لعيد الجلاء، ومنظر هؤلاء دفعني مباشرة للانتساب للكلية العسكرية في حمص. ومع تخرجي منها ابتدأت حياتي (الدمشقية) ولا تزال.

وأكثر ما سررت به في يوم الأيام – وضمن الجيش – تكليفي بتنظيم الدفاع عن دمشق، مقابل التهديد الأمريكي، وكنت أهتز فرحاً عندما كنت أزور الأماكن التي كنت أعدها للدفاع وأرى المتطوعين من الجيش الشعبي في ذلك الوقت، كلهم حماس وقوة في الدفاع عن العاصمة (دمشق)، فقد أصبحت الصخرة التي تتكسر عليها كل آمال الأعداء مهما كان نوعهم.

ويرحمك الله يا أمير الشعراء (أحمد شوقي) فأنت أكثر من عرف دمشق، ووصف دمشق عندما قلت:

حسبت لبنان جنات النعيم
وما نبئت أن طريق الخلد لبنان
حتى انحدرت إلى فيحاء وارفة
فيها الندى وبها طي وشيبان

وقولك:

دخلت في المسجد المحزون أسأله
هل في المصلى أو المحراب مروان

وقولك في ثورتها:

وللحرية الحمراء باب
بكل يد مضرجة يدق

وهي لا تزال يا أمير الشعراء، حصن العرب، ومصدر قوتهم، ومصدر فخرهم دائماً إنشاء الله.




دمشق تاج المدائن

شعر: زياد مصطفى الجزائري

رُبــاكِ عَــرائسٌ وصــباكِ عِــشْقُ
ومِــلءُ فــؤادِ مَــنْ يهــواكِ شــوقُ
حــضنتِ الفِكْــرَ والتّــاريخَ طِفــلاً
وأرضَــعْتِ الــرّؤى ويَــداكِ رِفْــقُ
بَزَغْــتِ حَــضارةً والأُفْــقُ جَهْــلٌ
وَسُــدْتِ وَجُــلّ مَــنْ في الأرضِ رِقٌّ
كأنّــكِ مــا خُلِقْــتِ سِــوى لِمَجْــدٍ
وقَبْلَــكِ مــا ارتقــى عَــدلٌ وحَــقٌّ
ربيعُــكِ دائِــمٌ في القَلْــبِ عَــذْبٌ
ووجهُــكِ مُزهِــرُ البَــسَماتِ طَلْــقُ
وصَــبْرُكِ في الخُطــوبِ بــلا حُــدُودٍ
وللأيّــامِ إرْعَــادٌ وبَــرقُ
سِــهامُ اللهِ عَنْــكِ تَــرُدُّ سُــوءاً
لهــا في وَجْــهِ مَــنْ يَرميــكِ رَشْــقُ
وكَــمْ يــأوي إلى عَيْنَيْــكِ هــاوٍ
وهجــرُكِ بَعــدَ وَصْــلٍ كَــمْ يَــشُقُّ
وَمَــنْ يَقْــصُدْكِ مِــن بُعْــدٍ سَــيَلقى
بأنــكِ مَــوطنٌ مــا فيــهِ فَــرْقُ







جِهـاتُ الكَـوْنِ في مَغْنـاكِ تَفنـى
فَكُـلٌّ جِهاتِـهِ بِحِمـاكِ شَـرْقُ
وَيَلْقـاكِ الغَريْـبُ بِـلا اغـترابٍ
كأنَّـكِ في شِـغافِ القَلْـبِ عِـرْقُ
أحبَّـكِ مِثـل حُبّـي كُـلُّ آتٍ
وفيـكِ لِكُـلِّ مَـنْ يأتيـكِ رِزْقُ
صُـروحُكِ والأزِقَّـةُ عِطْـرُ مـاضٍ
وَخَمْـرُ مَـشاعِرٍ والـرُّوحُ زِقٌّ
وَمِـنْ بـردى تَـدَفَّقَ كُـلُّ نَهْـرٍ
لَـهُ في لُجَّـةِ التّـاريخِ عُمْـقُ
أعاصِـمَةَ الثّقافَـةِ كُـلَّ عَـصْرٍ
علـى أبوابِـكِ الـدُّنْيا تَـدُقٌّ
تُنـاجي فيـكِ إحْـساساً وَرُوحـاً
وعَيْناهـا هَـوىً بـادٍ وَصِـدْقُ
ويَحْتَـضِنُ العُروبَـةَ مِنْـكِ صَـدْرٌ
يَبُـرُّ علـى الـدَّوامِ ولا يَعُـقُّ
وَعِقْـدُ اليـاسمينِ عَلَيْـكِ يَزْهُـو
و(للنَّـارِنْجِ) واللَّيمـونِ عَبْـقُ
أيـا تـاجَ المَـدائِنِ لا أُغـالي
فمِثْلُـكِ كُـلَّ شِـعْرِيَ يَـسْتَحِقُّ
لأنّـي عاشِـقٌ مـا دُمْـتُ حَيّـاً
ومـا دامَـتْ تُعـانِقُني دِمَـشْقُ